www.lotusfreepub.com

كما سقطت الفراشة

مجموعة قصصية

صبري أمين

كما سقطت الفراشة

مجموعة قصصية

صبري أمين

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

منشورات دار لوتس للنشر الحر

القاهرة الكبرى:

• ١٦ شارع محمد موسى متفرع من أول شارع فيصل - قرب محطة مترو فيصل

• ١٨ ميدان المساحة - الدقي

هاتف: 01091985809 - 01211313730

المغرب: الدار البيضاء

• ٢٧٠ زنقة ١٦ - حي البركة - مولاي رشيد

هاتف: 0664391261

مشروع النشر الحر

أول مشروع من نوعه يمنح الكاتب كافة الحقوق، والحرية الكاملة لنشر كتابه بدون احتكار لمجهوده في عملية تجارية.

للتواصل مع الدار والمشروع:

هاتف / واتس آب:

+2 01211313730 | +2 01091985809

الموقع الإلكتروني

www.lotusfreepub.com

البريد الإلكتروني

Lotusfreepub@gmail.com

صفحة فيسبوك

FB/lotusfreepub

إصدار: مارس ٢٠٢٠

رقم الإيداع

2020/11339

الترقيم الدولي ISBN

978-977-85720-5-6

الترخيص

مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي - نَسب المُصنَّف ٤,٠ - دولي

الغلاف والإخراج الفني:

دار لوتس للنشر الحر

كل ما ورد بهذا الكتاب مسئولية مؤلفه من حيث الآراء والأفكار والمعتقدات، وكونه أصيل له غير منقول، وأية خلافات قانونية بهذا الشأن لا تتحملها دار النشر

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف ولا يجوز نشر هذا الكتاب أو جزء منه بأية طريقة دون موافقته أو موافقة دار النشر

إهداء

إلى الباحثين بين السطور

إلى الباحثين عن السكينة

إلى الباحثين عن الحياة

أهديكم هذا الكتاب

إلى مصدر السكينة في حياتي

عائلتي الصغيرة

أهديكم هذا الكتاب

مع محبتي

مقدمة

لقطات الحياة وأحداثها المتتابعة لا يكاد يلاحظها الإنسان، بل يعتاد على سرعتها، هكذا الحياة وهكذا هذا الكتاب، أحداث الحياة أمواج عاتية يشغلك التغلب عليها عن متابعة ما يجري فيها، ربما سعادتك وسكينتك التي تعيش حياتك تبحث عنهما بين يديك أو أمام عينيك بينما أنت غافل عنهما، مشغول بسواهما. ستجد العديد من هذه اللقطات والأحداث في رحلتنا داخل هذا الكتاب، نصارع أمواج الحياة سويا ونتابع مشاهد الحياة لنبحث معا بين السطور عما يبحث عنه كل انسان.

سوف آخذك في لقطات متتابعة لأحكي لك كيف قمت بـ«مغامرة مشروعة» في ألمانيا وكيف تعلمت

«درس صغير» من زميلي حسن، سوف تجد نماذج كثيرة في رحلتنا مثل «البكاش»، ربما تكون قد قابلتها أكثر في حياتك. أعود بك إلى الطفولة وما أحلى تلك الأيام لأذكر لك ذلك البراح الذي احتواني وذلك «لأنه أبي» ولا زلت أسترجع معك ذكريات الطفولة والنصيحة التي أسديت إلي في «المختلف» ثم أقفز بك إلى مرحلة الشباب لترى كيف أنني لم أسقط «كما سقطت الفراشة». مهلا، لنسترح برهة وسط الأحباب في «يوم تلات» لتشاهد جمالهن معي ثم أكشف لك عن سر «حب الحياة». قبل استكمال الرحلة أود أن أبوح لك ببعض «مشاعر سجينة» في نفسي.

هل استرحت قليلا، هيا لنكمل الرحلة ولنبدأ بأول «اختيار صعب» ثم

أبوح لك بـ «السر اليومي» لعلك تفعل كما فعل أبي. هل تريد بعض الدفء، سأضع بعض المشاعر الدافئة بين يديك مثل التي ستجدها بين «الأخ وأخوه». هيا لنعرج الآن على بعض الذكريات في حكايتي عن «الجورب والقلم» ثم لنرى سويا حكاية «العجوز والهاتف» ونشعر بالأسى والأسف لحال العجوز المسكين. لن نترك هذا المنعطف قبل أن تتذوق «مذاق الكلمة» التي تهم بإخراجها من بين شفتيك قبل أن تخرجها. أرجو منك ألا تغضب إذا وجدت «حاجات مش لينا». سوف أقدم لك نصيحة في طيات «كلمتي» كي لا يغضب منك أحد.

حقا للإنسان أم واحدة ولكن لا تشعر بالدهشة من صديقي معتز عندما يقول «كلهن أمي». كلما زادت لطمات الحياة فابتسم قدر استطاعتك فإن الله «يُدبر الأمر». لنسترح قليلا ونستمع إلى «محاضرة الحياة» ونذكر أستاذي بالخير. إن حكمة الله في كونه تجلت في مشاهد كثيرة رأيناها بين طيات هذه الرحلة ولكن حكاية «نجية» لها طعم آخر يجعلك تقول سبحان الله. لنترك نجية سريعا ونرى ما فعلته «الحاجة سناء» مع من حولها. تتسارع اللقطات والمشاهد الحياتية كأنك بجوار «السائق» في سيارة تنطلق مسرعة ومشاهد الحياة تتتابع متلاحقة و أنت تنظر إليها من نافذة السيارة. مع كل نبضة قلب لابد لنا من «بداية جديدة» مع أنفسنا لنحيا كما يجب أن نحيا ونترك الألم لأننا لا نستحق أن نتألم. حتما ستجد في حياتك من تشير إليها وتقول إنها «تشبهني» لتحيا معها حياة متكاملة.

لابد أن تفرح يا عزيزي إذا كان لديك صديق مثل أحمد الذي يردد

ويفعل كل جميل لكي يحقق مقولته الجميلة «كله يفرح»، يقولها ويعنيها ويفعل من أجلها. بعد هذه الرحلة الصعبة لابد لك من فنجان قهوة مثلي فأنا «أحب القهوة « ثم أدعوك لسماع صديقي الذي يحكي عن آخر محاضرة له في كلية الحقوق فقد كانت «محاضرة لا تُنسى» ثم أدعوك لتقرأ كلماتي كما قرأت أميرة حكايتي معها التي أطلقت عليها «أميرة حياتي» ولنخرج سويا في محطتي الأخيرة من عالم الو اقع إلى عالم الخيال في «نبيل بعد التعديل».

•••

مغامرة مشروعة

أنهيت كلية الطب وشرعت في استكمال دراستي في جامعة أوروبية شهيرة، ساعدتني الحالة المادية المتيسرة لأسرتي لإكمال المشوار الذي طالما حلمت به لأن حلمي أن أصبح مشهورا وأكمل دراستي في الخارج وأستقر هناك، ولكن حادث مفاجئ لأبي أربك كل الحسابات وكذلك حالي بالطبع رأسا على عقب ثم توالت الحوادث واحدة تلو الأخرى. أصيب والدي في حادث سيارة مفاجئ بشلل تام. لم أكن أدرك يوما أن أبي يحمل كل هذه المسؤوليات على عاتقه إلا حينما أصيب في هذا الحادث، ليس هذا ما لم أدركه من قبل فقط ولكن لم أكن أدرك أن الله يحبه لدرجة أن يرحمه من عذاب المرض والعجز فلم تمر سوى بضعة أشهر حتى توفاه الله ولحقت به والدتي سريعا، وهذا لم أكن أعلمه أيضا. لم أعلم أن والدتي كانت تحبه لهذا الحد الذي تفقد حياتها بعده، أدركت أنها كانت تتنفسه هو شخصيا. أصبحت وحيدا بلا مقدمات، ليس لي أسرة، باقي عائلتي في صعيد مصر و أنا وحيد في القاهرة.

أنهيت كل التزاماتي في القاهرة وقمت ببيع كل ممتلكاتي وعدت إلى ألمانيا وساعدني بعض الأصدقاء لأشتري شقة صغيرة في مقاطعة صغيرة ثم التحقت بالجامعة لإكمال دراستي. كنت أدفن همومي في الكتب والمراجع ولكن لم يدم هذا كثيرا لأن الأوراق لم تكف لاستيعاب هذه الهموم. نصحني صديقي أوزجان وهو تركي الجنسية، اسمه جميل

يدفعك إلى السؤال عن معناه وسألته بالفعل فقال إن اسمه من مقطعين «أوز» و«جان» أي الحقيقة والروح. نصحني أوزجان أن أتزوج حتى أجد شريكة لحياتي تشعرني بالجو الأسري الذي افتقدته فجأة. ابتسمت وقلت له «وهل في ألمانيا من تعوضني عن الحياة التي كنت أعيشها؟». كانت هذه حقيقة راسخة عندي. مرت شهور عديدة على نصيحة أوزجان وكلما تذكرتها ابتسمت، حتى التقيتها، إنها الیندا، الفتاة الألمانية، بالطبع كان أول سؤال يخطر على بالي، ما معنى هذا الاسم، بحثت حتى عرفت أن معناه «الدرع النبيل» وتتميز صاحبته بشخصية طيبة ومهذبة ومحبوبة ومجتهدة وتحب العمل، هناك مثل مصري يقول «إن لكل منا نصيب من اسمه» سألت نفسي هل الیندا سيكون لها هذا النصيب من اسمها. بدأت أُلاحظها في الجامعة و أتقرب إليها وبدأت تبادلني نفس الاهتمام فوجدتها تتمتع بكل صفات اسمها، فهي مهذبة محبوبة مجتهدة وتحب العمل، أكثر ما جذبني إليها أنها اهتمت بي وبشؤوني و اقتربت مني، وبدأت أشعر معها بالجو الأسري الذي افتقدته. أنت في أسرتك محط اهتمام والديك وإخوتك وحينما تجد هذا الاهتمام من شخص آخر فسوف ينتقل عندك إلى الركن الدافئ في عقلك قبل قلبك وهكذا الیندا. سمعت وتعايشت مع كثير من المشكلات التي نتجت عن الزواج بالمرأة الأجنبية ولكن أيضا رأيت نماذج كثيرة ناجحة لهذا الزواج. عقدت العزم على أن يكون زواجي من الیندا مغامرة مشروعة. عرضت عليها الزواج فو افقت دون تردد ويبدو أنها كانت تكن لي نفس مشاعري تجاهها. قالت لي إنني انتقلت إلى

الركن الدافئ في قلبها، راق لي أنها استخدمت نفس تعبيري ولما سألتها عن معنى الركن الدافئ قالت إنه الركن الذي تختص به أقرب الناس إلى قلبك. كانت مغامرة بالفعل أن تحيا برفقة ألمانية محبة للعمل والعلم. بدأت تدفعني إلى استكمال دراستي التي كنت أسير في طريقها بمنطق «أقدم رجلا وأؤخر الأخرى» ولكن بدفعها لي أصبحت راكبا «سكوتر». كنت دائما أتذكر ذلك المثل المصري الذي يقول «ليس من سمع كمن رأى»، بالضبط هذا المثل ينطبق على حياتي مع الیندا، سمعت عن جمود الأجنبية وبرود مشاعرها ولكن رأيت من الیندا العكس تماما، فقد أذابت حرارة حبها أكوام الثلج التي كانت تتراكم فوق سطح منزلنا الصغير. حب وعطف وحنان ورحمة ومودة. قالت لي ذات يوم «أنا أتنفسك» فضممتها إلي وتذكرت تلك الكلمة التي كانت تقولها أمي لأبي رحمهما الله. أنجبت أوليندا و إيرما ومحمد وعلي. كانت مغامرتي معها تتلخص في نوع المغامرة الذي قررت أن أخوضه، هي مغامرة الزواج من الألمانية، حب الألمانية وعشقها إلى أبعد حد. نجحت المغامرة وكسبت السباق وفزت بحبها ودفئها والجو الأسري الذي عوضتني به عن اختفاء أسرتي المفاجئ. مغامرتي التالية بدأت مع أولادي لأعلمهم الإسلام وشعائره ولكن للحق لقد كانت مغامرة بسيطة لأن الیندا ساعدتني كثيرا بعد أن أسلمت بعد زواجي منها ببضع سنوات.

هذه التفاصيل تدافعت إلى رأسي عندما وقعت عيني على عنوان مقالتك الرائعة سيدي والتي تدعو فيها القراء إلى سرد قصص أي مغامرات مشروعة قاموا بها. إنها تجربتي التي أود أن أشاركها مع جميع

القراء، إنها مغامرتي المشروعة التي عشتها واستمتعت بكل لحظة فيها. شيء أخير أود أن أضيفه أنني تعلمت أن الحياة نفسها مغامرة مشروعة عليك أن تخوضها ولتكن عينك على الهدف حتى لا تتوه في غياهب جبالها ومنعطفاتها ولتكن بوصلتك هي القلب والعقل وزادك فيها هو الحب.

أشكرك سيدي على سعة صدرك لقراءة رسالتي حتى نهايتها وكم أنا سعيد بأن أبث مغامرتي إليك ولكن ما أسعدني حقا هو أنني عشت هذه المغامرة معك و أنا أقرأها و أتذكر تفاصيلها.

طوى محمد الجريدة القديمة التي نشرت رسالة والده، وضعها بجانبه وخلع عويناته الطبية ووضعها على المنضدة وأحضر منديلا وجفف دموعه التي سالت على خديه ثم نظر إلى الصورة فوق الكمود وقال «رحمك الله يا أبي»، لقد عشت مغامرة حياتك المشروعة وعلمتنا كيف نخوض مغامرتنا في الحياة بكل طاقة وحب».

•••

درس صغير

ذات صباح دخل المدير إلى مكتبنا وكان المكتب يضم أكثر من عشرة موظفين وسأل «من لديه خبر منكم في الدعاية والإعلان»، هذا التخصص بعيد كل البعد عن عملي كمحاسب مالي، تعجب كثير من زملائي من سؤال المدير ولم يتطوع أحد ويعلن خبرته. ما زاد دهشتي أن «حسن» زميلي بالمكتب» محاسب مثلي تماما» خبير في هذا المجال ولديه عمله الخاص ورغم ذلك لم يتقدم للمدير ويعلن عن معرفته وخبرته في هذا المجال.

لم أفكر لماذا فعل «حسن» ذلك إلا عندما اندفعت أنا وتقدمت إلى المدير وأعلنت عن معرفتي السابقة بهذا التخصص. سألني عن مدى معرفتي تحديدا فأخبرته أنني عملت في إحدى شركات الدعاية. ابتسم المدير وطلب مني أن أصحبه إلى غرفة مكتبه.

انتهى اليوم و انصرف زملائي وبقيت أنا حبيس مكتب المدير أتابع معه عروض شركات الدعاية والتصميمات المقدمة، والبحث عن شركات متميزة في هذا المجال ومهام أخرى كثيرة. كان المفترض أن أنصرف مع زملائي في تمام الخامسة مساء ولكن لم أبرح المكتب إلا في العاشرة مساء وتكرر هذا لمدة أسبوع بلا مقابل سوى بضعة كلمات تقدير من المدير لمجهودي الكبير الذي بذلته لمصلحة الشركة. نظرت إليه ولسان حالي يقول: ليتني علمت ذلك قبل أن يخرج لساني من فمي وينطق بموافقتي على هذا الأمر.

سألت حسن «لماذا لم تتقدم وتعلن عن خبرتك في هذا المجال؟»، ابتسم

وقال بسخرية «حتى لا يتكرر لدغي من جحر مرتين فأنا والحمد لله مؤمن». ابتسمت فأدرك حسن أنني لم أفهم مقصده، فقال لي أنه تطوع أحد الأيام للقيام بدور «عامل مخزن» ليساعد في فهرسة البضائع داخل مخزن الشركة التي كان يعمل فيها قبل أن يلتحق بالعمل معنا. أضاف حسن «بعد أن أمضيت ما يقرب من شهر في هذا الأمر الشاق لم يعطني المدير أجرا إضافيا ولما سألته أخبرني أنه أعفاني من عملي الأساسي لأقوم بهذا العمل هذه الفترة، وأن هذا يدعى تغيير مسمى وظيفي، أوضحت له أنني تطوعت لإنقاذ الشركة من مشكلة كبيرة متوقعة إذا حضرت إحدى اللجان الرقابية للتفتيش، فقال المدير وهو يبتسم «لقد قلتها «تطوعت ونحن قبلنا هذا التطوع ولم نفرض عليك ذلك بأجر»

ربتُ على كتف حسن وقلت له «ليتني سألتك قبل أن أقرر» فقال «لا تحزن لقد تعلمت درسا مقابل أسبوع عمل أما أنا فقد دفعت شهرا كاملا لأتعلم نفس الدرس». شردت قليلا وأنا جالس أمام مكتبي فرأيت أحد الملصقات الذي كان أمامي طوال الوقت ولم أدرك أهمية العبارة التي يحملها إلا في ذلك التوقيت وكانت تقول «في المدارس نتعلم الدروس ثم نمر على الامتحانات، أما في الحياة فنمر بالامتحانات ثم نتعلم الدروس» وكان أسفل العبارة اسم كاتبها «الدكتور ابراهيم الفقي» رحمه الله. نظرت إلى المقولة وتمتمت «أحيانا تكون الدروس غير متوقعة والامتحان مفاجئا».

•••

البكاش

- بتفتكرني كام مرة و أنت في شغلك؟

- ولا مرة

- بقى كدة

- آه، عارفة ليه؟

- ليه؟

- عشان عمري ما نسيتك.

- بس يا بكاش

- بكاش!! ليه، عشان بقولك كلمة حلوة تقولي بكاش ولو مقولتش حاجة ترجعي تترحمي على أيام زمان وتقولي حتى مبيقولش كلمة حلوة

- طب خلاص متزعلش، مش هقولك بكاش تاني بس متبطلش تقولي كلام حلو

خرج أشرف من المنزل وهو يضرب كفا بكف وكان يتعجب من زوجته وأنها لا ترضى بكلامه الحلو ولا حتى ترضى بقلة كلامه. استقل سيارة أجرة لكي يذهب إلى عمله، وكان الركاب يجمعون الأجرة من بعضهم البعض ليعطوها إلى السائق، وصلت الأجرة للسائق على دفعات فقال بطريقة فظة « لموا الأجرة مع بعض» ثم أعطاها للراكب الجالس خلفه للتصرف في جمعها وإعطاء الركاب باقي الأجرة. رفض الراكب أن يتطوع ويجمع الأجرة. حاول أشرف أن يحل الموقف قبل أن يتطور إلى مشاجرة

بين الركاب والسائق فتطوع أن يجمعها هو وقال للسائق «أنت معاك كل حق يا أسطى إنك تركز في الطريق خصوصا لو كان زحمة كدة، ولكن الركاب ملهمش ذنب يتحملوا مسؤولية لم الأجرة وتنقص أو تزيد»، ثم نظر إلى الركاب وقال «و أنتو ملكوش ذنب تلموا الأجرة وتتحملوا أي لخبطة فيها ودي مسؤولية السواق ممكن يجيب ولد يساعده لكن إحنا لازم نساعد بعض، أمال فين الانسانية والرحمة بينا، فالمثل بيقول إن نزعت الرحمة من بيننا نزعت البركة من رزقنا». التفت الجميع إلى أشرف، حتى السائق وجه مرآة الوسط إلى وجهه. كان الجميع يبتسم، نظر أحدهم إليه وكان يبعد عنه قليلا وتمتم «آه يا بكاش»، رغم المسافة إلا أن أذن أشرف كانت أكثر حساسية لهذه الكلمة فتمتم على الفور « حتى أنتو هتقولوا بكاش».

انتهت رحلته إلى العمل، وبدأت رحلته من باب الشركة إلى مكتبه وكانت أكثر إرهاقا له؛ كان يتوجه ليصافح الجميع بود زائد، ويتحدث إلى كل واحد منهم ويسأله عن صحته وأسرته وآخر موضوع تحدثا عنه في المرة الأخيرة. وصل إلى مكتبه، جلس خلف المكتب وأخرج متعلقاته ثم فتح أحد أدراج المكتب وأخرج ملفا به بعض الأوراق وشرع يراجع بعض الحسابات فيه لبعض الوقت. جذب انتباهه صوت مرتفع فانتبه إلى مصدر الصوت، وإذا به يسمع مشادة كلامية بين زميله في العمل وأحد عملاء الشركة، ترك أشرف مكتبه على الفور و اتجه إلى العميل وتحدث إليه لدقائق ثم دعاه إلى مكتبه، سأله عن سبب المشكلة فأخبره العميل أنه انتظر الزميل أكثر من نصف ساعة بينما كان الآخر يتناول إفطاره ثم

ترك مكتبه وذهب لإعداد مشروبه المفضل «الشاي بالنعناع»، ثم جلس يتسامر دون أن يعيره أي اهتمام. اعتذر له أشرف بالنيابة عن زميله وطلب منه أن يعذره لأن الرجل يعاني من مرض السكر ولابد أن يتناول افطاره ليأخذ الدواء، ثم أضاف «معاك حق إنك تغضب وهو غلطان ومفيش اتنين يختلفوا على كدة، كان يشوف طلباتك الأول وبعد كده يعمل اللي عايزه، ولكن قولتلك عذره، وللأسف وكمان نسيت أقولك إن الساعي مجاش، فبالتأكيد راح بنفسه يجيب الميه عشان ياخد الدوا ويعمل شاي، ومسألتش نفسك، ليه الشاي بالنعناع، عشان عنده القولون، فهو بيشرب الشاي بالنعناع عشان يريح له معدته. التمس له العذر وأنت كمان غلطان» اندهش الرجل ولكن أشرف استطرد قائلا «كان لازم تكلمه بهدوء». لم يتحمل الرجل الجملة الأخيرة وقال «حاولت أكلمه بهدوء، ولو لمجرد النصيحة، لكن زعل وزعق بصوت عالي». ابتسم أشرف وقال له «يا أخي، النصيحة على الملأ فضيحة».

ترك أشرف مكتبه وأنهى للرجل أوراقه فشكره الرجل وانصرف. توجه إلى صديقه وقال له «كان عميل عصبي، وعصّبك أكيد، الناس ميعرفوش ظروف بعضهم ومع كدة بيحكموا على بعض من غير رحمة. بس ده ميمنعش إنك غلطان، كان لازم تقوله الكلام اللي قولته أنا ده بهدوء لازم يعرف إنك ضروري تفطر عشان تاخد الدوا، صوتك العالي هيضرك أكتر ما ينفعك، فلو جه المدير وشاف الموقف ده، كان أكيد هيغلطك أنت، أنت متعرفش شعار أي مدير «العميل دايما على حق». اقتنع زميله كما اقتنع العميل قبله، وكان شلبي زميلهم، يشاهد الموقف

من بدايته وتتبع أشرف في الموقفين مع العميل ومع الزميل، فابتسم وقال له «آه يا بكاش». أحس أشرف بالغيظ وقال له «حتى أنت يا شلبي».

•••

لأنه أبي

كنت غاضبة ذات يوم من أخي الأكبر سنا لأنه دفعني وأخذ مني لعبتي ليلعب بها هو، كنت في السادسة أو السابعة من العمر، بكيت بشدة، ليس لأجل لعبتي ولكن لأن أمي لم تكترث لشكواي وبكائي ولأن أولاد خالي الذي كنا في بيته في زيارة عائلية سخروا مني وضحكوا كثيرا. خرجت إلى الشارع لأبحث عن أبي، لقد كان معنا ثم استأذن ليذهب للصلاة، لكنه تأخر، لو كان موجودا لما استطاع أحد أن يفعل بي ذلك، وجدت سيارته فجلست بجانبها أبكي ثم لفت نظري بعض النمل الذي يسير فوق الأرض. كانت النملة تبحث عن مرادها ثم تحمله وإن لم تستطع تذهب وتحضر أخرى لتساعدها. وجدت قلما يستخدم في التلوين فأمسكت به ووجدت غلافا ورقيا سميكا كان ملقى بجانب إطار السيارة. أمسكت القلم وكتبت بعض الكلمات التي أردت بها التعبير عن احتياجي لأبي، احتياجي لحمايته، احتياجي لحضنه الدافئ «أين أنت يا أبي، هيا، احضر هنا» كنت أكتب و أبكي وبعد دقائق وجدت دفئا يحضنني وبراح يحتويني وحنان يضمني، كان يرتدي ثيابا بيضاء ناصعة ويبدو كالملائكة ولم لا وهو ملاكي، سألني عن سبب بكائي فأخبرته بالأسباب كلها، فضمني إليه وأخبرني أنه سيعاقب أخي. أمسك الورقة وقرأ ما فيها و ابتسم ولثمني. أحببت القلم لأن أبي سمع صوته وحضر سريعا وأردت الاحتفاظ به، ولن أجد مكانا أقرب لي و أكثر أمانا على قلمي من جيب سترة أبي، فوضعت

القلم وهنا ظهرت البقع السوداء، بقع حبر القلم، على الثياب، نظر أبي إلى ثيابه وقد تحولت إلى بقع سوداء عند الكتفين والصدر لأن يدي كانت متشبعة بحبر القلم. خشيت أن يلقي بي أرضا وقد أفسدت له ثيابه، ولكن لأنه أبي فقد انتظر قليلا حتى هدأ ثم ابتسم وقال «ألم تلاحظي الحبر في يديك؟» فأخبرته أنني لم ألاحظ. قال لي «لا عليك» وصحبني وأحضر لي بعض الحلوى.

•••

المختلف

ذات يوم أسرع زملائي في الفصل إلى الباب بمجرد أن دق جرس انتهاء اليوم الدراسي، كانوا يتصارعون على الخروج وكأن الفصل يقذفهم من فمه، تدافعوا، تساقطوا، تألموا، وأخيرا فرحوا، الغريب أنهم أطلقوا صيحات الفرح وهم يتساقطون ولما انتهى الصراع وخرجوا إلى البراح، راح كل منهم ينشغل في حاله. انتظرت حتى نجح الهروب والتفت لألتقط حاجياتي فلاحظت أن المعلمة و اقفة تنظر إلي وتبتسم ثم سألتني عن سبب انتظاري حتى انتهاء التزاحم، لم أفكر في الرد و انطلق لساني بعبارة واحدة «أنا مختلف». ضحكت حتى عادت برأسها إلى الخلف وقالت لي «إذن، لابد أن تكون مختلفا في كل شيء طالما الاختلاف في صالحك». مرت الأيام متسارعة، يوم وراء يوم، وأنا أحافظ على نصيحتها وأضعها نصب عيني، لابد أن أكون مختلفا. كنت أبحث دائما عن الشيء المختلف، الطريق المختلف لأسير فيه، ولم أنسَ الشق الآخر من النصيحة «طالما الاختلاف في صالحك»

أنهيت التعليم الثانوي ووجدت أبي يفاجئني بكلامه «استعد يا سيادة الطبيب لتحمل راية الطب من أبيك»، حلت كلماتي كالصاعقة عليه عندما أخبرته أنني أريد الالتحاق بكلية الهندسة، ظل يعدد لي أقاربي من الأطباء وحالهم المادي المتميز ووضعهم الاجتماعي الرائع، وكيف

أن فلان ابن فلان اشترى سيارة وعيادتين وكيف وكيف، أصررت على موقفي وتركته يهدأ ثم أوضحت له أنني اخترت تخصصا مختلفا ومازال جديدا في كلية الهندسة و أنني راسلت إحدى أكبر الجامعات في ماليزيا التي تفوقت على جامعات أوروبا في هذا التخصص وأنها أرسلت لي حسابا إلكترونيا على موقعها الإلكتروني يتيح لي التجول بين أروقة الكتب لأطلع على هذا العلم الجديد ورحبت بي إذا فكرت في استكمال دراستي هناك، وذلك بعد أن أعددت دراسة كاملة عن فرص النجاح المتاحة لهذا التخصص في كثير من المجالات ومعها شركات عملاقة. و افق أبي على مضض، وحققت رغبتي و اقتنع بحماسي وتركني أخوض تجربة مختلفة. في البداية كان الطريق صعبا للغاية لأنه طريق مختلف، الدراسة ليست بسهولة الثانوية العامة، المنهج يتجدد ويتطور أثناء الدراسة، الأدوات مكلفة للغاية وطرق الدراسة تعتمد على البحث العلمي وليس التلقين، جانبها العملي أكثر بمثير من جانبها النظري. صممت على النجاح، وللحق لم يدخر أبي جهدا أو مالا في مساعدتي فنحن لسنا ضدين وفي النهاية هو يريد لي النجاح وهو أحرص من حولي أن أصبح أفضل منه، هكذا كان يردد مرارا وتكرارا. سافرت إلى ماليزيا عدة مرات أثناء الدراسة وتوطدت علاقاتي بكثير من المهتمين بالمجال هناك وكذلك علاقاتي بأساتذتي وزملائي وكانوا يطلقون علي «المختلف» كنت أحرص أن تكون وسائلي إلى المعلومة مختلفة ووسائلي للتعبير عنها أيضا مختلفة، حتى ردود أفعالي كانت مختلفة.

أنهيت دراستي ووجدتها فرصة رائعة أن أقدم بحثا ودراسة جدوى

مكتملة التفاصيل لإحدى الشركات الماليزية الكبرى لإنشاء فرع لها في بلدي. و افقت الشركة، بل ورحبت لأن الفكرة التي قدمتها لتطبق كانت مختلفة.

عندما أصبحت المدير الإقليمي للشركة الوحيدة من نوعها في الشرق الأوسط جاء أبي لزيارتي ورؤية ابنه وهو قد حقق بعض أحلامه التي شجعني لتحقيقها. شاهدت ابتسامة أبي وقد اغرورقت عيناه بالدموع فرحا من أجلي، حينها لثمتُ يديه وقُلت «شجعتني رغم أنك كنت تحلم أن تر اني «بالبالطو الأبيض» وأن تزورني في عيادتي». أشار أبي بيديه لأصمت وقال «ولدي أنا حلمي أن أراك سعيدا وناجحا ويشار إليك بالبنان وها أنت ذا قد حققت لي هذا الحلم ولا تنسَ نصيحة معلمتك «لابد أن تكون مختلفا في كل شيء طالما الاختلاف في صالحك «.

•••

كما سقطت الفراشة

ذات يوم، خرجتُ غاضبا من المنزل، حاولت أمي اللحاق بي وهي تناديني كي لا أخرج و أنا في تلك الحالة. كانت الساعة لم تتعد العاشرة صباحا ولم تذق عيني النوم في الليلة السابقة لأنني كنت أفكر في حل للمشكلة التي واجهتني لبدء مشروعي الأول في بداية حياتي العملية وهي مشكلة التمويل. في ذلك الصباح، طلبت من أبي أن يساعدني في الحصول على قرض من البنك الذي كان يعمل فيه، ولكنه رفض رغم يقيني أنه كان يستطيع أن يساعدني. كان هذا هو الحل الذي وجدته بعد طول تفكير و أنا أتقلب في فراشي أبحث عن حل لمشكلة التمويل تلك. شعرت أن الحل الذي وصلت إليه كان مجرد سراب، وأن حلمي بعمل مشروع جديد قد تبدد. فكرت في مكان لكي أذهب إليه لأريح أعصابي وأستطيع التفكير؛ رفضت فكرة المقهى لكثرة الضوضاء و أنا أحتاج للهدوء. تذكرت حديقة الأزهار التي مررت من أمامها منذ أيام وتمنيت لحظتها أن أدخلها لأجلس بين الأزهار. عزمتُ على الذهاب إليها لأنعم بألوانها الزاهية وعبيرها الفواح والهدوء الذي تتمتع به الحدائق. وصلت إلى الحديقة ودخلت بعد سداد رسوم الدخول. جلست على أحد المقاعد الخشبية، كانت الحديقة هادئة ومشهد الأزهار جميل للغاية. بينما أفكر في حل للمشكلة وجدت فراشة صغيرة تقف فوق إحدى الأزهار وتحاول أن تطير، وكانت تصارع من أجل الطيران وكأنه صراع من أجل

الحياة ثم توقفت فجأة وكأنها تعبت. شعرت بالشفقة تجاهها فحاولت مساعدتها قليلا لتستطيع الطيران، حاولت أن أساعدها لكي تطير، بالفعل ساعدتها؛ حملتها بيدي ودفعتها لأعلى، وليتني ما فعلت، فقد سقطت بعد أن قذفتها لأعلى لأن أجنحتها كانت ضعيفة لا تستطيع الطيران. شعرت أنني أخطأت و اندفعت وراء عاطفة الشفقة ولم أفكر في أن الفراشة لم يكتمل نمو أجنحتها بعد، ولم تقوَ على الطيران، بل ربما تموت، وبدلا من مساعدتها سببت لها ضررا كبيرا.

بعد أن أفقت من شرودي لم أرَ الفراشة، لا أعلم أين ذهبت فقد اختفت، وربما حاولت الطيران مرة أخرى فسقطت بين الأزهار، ربما حدث لها شيء آخر لا أعرفه.

سيطر علي تساؤل «لماذا تعرضت لهذا الموقف الآن، هل هي علامة على شيء معين؟» ثم فكرت في أمر الفراشة. كانت تحاول أن تطير وعندما ساعدتها قبل أن تنضج أجنحتها سقطت. هذا نفس حالي، أحاول أن أخرج من مشكلتي و أبي يستطيع مساعدتي ولكنه رفض ذلك، ربما رأى ما لم أره، ربما رأى أنه إذا ساعدني لأبدأ مشروعي بالقرض ولم يشتد عودي بعد فقد أفشل، وربما أدى هذا الفشل إلى يأس من العمل أو إلى خسارة كبيرة تطيح بأحلامي إلى الأبد. إذن لابد أن هناك علاقة بين حالي وبين حال الفراشة وأن هذه علامة على عدم التعجل.

أفقت من شرودي فوجدت اتصالا من أبي، طلب مني العودة إلى المنزل. لبيت طلبه وكانت الساعة قد اقتربت من الثانية مساء وقد مر بي الوقت في الحديقة ولم أشعر به. وصلت البيت وكانت أمي قد أعدت

طعام الغداء. كان أبي جالسا أمام السفرة وكذلك إخوتي، أحضرت أمي صنفا آخر من أصناف الطعام وجلست هي الأخرى إلى السفرة. ألقيت السلام وجلست إلى الطعام ولم أتحدث عن أي شيء. ابتسم أبي وبدأ الحديث قائلا:

- ما أخبار الفراشة؟

وهنا بلغت بي الدهشة مبلغا عظيما حتى صرت كالأبله فاتحا فمي وعيني، ولم أتفوه بكلمة غير «ماذا؟». هنا ضحك أبي بشدة وقال:

- لا تذهب بخيالك بعيدا، فأبوك ليس ساحرا أو عرافا. لقد نزلت خلفك سريعا، ولم أتحمل أن أتركك و أنت غاضب، خشيت عليك من نفسك، ولما رأيتك دخلت الحديقة، دخلت خلفك وشاهدتك تساعد الفراشة ثم شردت طويلا فعلمت أنك هدأت فتركتك في شرودك وعدت إلى المنزل وأظنك قد هدأت قليلا لنتناقش.

زالت دهشتي ولكن لم أتفوه بكلمة بينما استطرد أبي قائلا:

- دعنا نفكر بطريقة منطقية، أنت في بداية حياتك العملية وليس لديك خبرة في أي مجال، أنهيت الدراسة الجامعية وتريد أن تبدأ مشروعا لا تعرف عنه شيئا سوى أنه مشروع مربح ووجدت كثيرا من أصدقائك وممن حولك يُرحبون بالفكرة ويشجعونك عليها، أنا أشجعك على العمل الحر أيضا ولكن لابد أن يكون لديك الخبرة الكافية لتبدأ فيه، ماذا تعرف عن الاستيراد والتصدير؟ هل تعرف غير الاسم فقط؟ ماذا سوف تستورد؟ هل تستطيع تقييم ما سوف تستورده بالنسبة للسوق المحلي؟ هل لديك دراسة للسوق وماذا يحتاج؟ هل يمكنك اكتشاف

عيوب المنتج الذي سوف تستورده إذا أوقعك حظك في تاجر أو شركة أو وسيط أعطاك منتجا مغشوشا لما فطن لعدم علمك وقلة خبرتك؟ وهذا بالطبع ينطبق على التصدير. يا ولدي لابد من الخبرة والدراية بالمشروع. المال ليس العامل الرئيسي للنجاح، فيمكنك أن تبدأ مشروعات كثيرة بدون رأس مال ضخم ولكن لابد أن يكون رأس مال الخبرة متوفرة لديك. إن أغلبية فشل المشروعات التي وردت علي أثناء عملي كانت بسبب نقص الخبرة لأصحابها.

فكرت قليلا في كلامه ثم دعتني أمي إلى الطعام، فابتسم أبي وقال:

- هيا إلى الطعام ولنستكمل كلامنا بعد أن ننتهي إذا أردت ذلك.

بعد أن انتهيت من الطعام اقتربت من أبي وكان يتناول الشاي وهو مشروبه المفضل، وكان يتابع التلفاز فأغلقه و انتبه لي وقال:

- هل فكرت في كلامي؟

أجبته أنني اقتنعت ور أيت الفراشة دليلا عمليا أمامي فعندما ساعدتها على الطيران قبل أن يكتمل نمو أجنحتها سقطت. ابتسم أبي وقال:

- وهكذا أنت يا ولدي، أجنحتك هي الخبرة والعلم والتخطيط السليم والمال، هذه هي أجنحتك في مشروعك، فإذا اكتفيت بجناح واحد فسوف تسقط كما سقطت الفراشة.

•••

يوم ثلاث

دعاني صديقي وجدي لحفلة عيد ميلاده الذي قرر فجأة أن يقيمه في فيلته الجديدة التي انتهى من عملها على الطراز الريفي القديم حيث مبنى الفيلا مثل دوار العمدة الذي شاهدناه في المسلسلات القديمة وأمامه المندرة التي تميزت بها هذه البيوت قديما لاستقبال الضيوف. عندما سألته عن التفاصيل والحضور قال لي جملة واحدة «متقلقش يا فنان والجو هيعجبك ومفيش حد مدعو من الإعلام عشان ميزعجكش» شكرته على حسن تفهمه فنحن النجوم تعجبنا الشهرة وتروق لنا ولكن تطفل البعض على حياتنا الشخصية أصبح مصدر إزعاج لا يُطاق هذه الأيام. طلب مني صديقي أن أحضر مبكرا وأحضر له أغنية لأقوم بغنائها في الحفلة واعتبرها أفضل هدية يمكن أن أهديها له في ذلك اليوم. بالتأكيد أسعدني عرضه على ذلك وما كنت لأغضب صديق عمري. أخبرني أنه جهز فرقة موسيقية مشهورة لإحياء الحفل وبعض المطربين الشباب وهناك المسرح المكشوف في المساحة الخضراء الواسعة التي تحيط دواره الجديد حسب وصفه لي. لا أريد أن أثقل عليكم بتفاصيل استعدادي وحيرتي في اختيار أغنية مناسبة وسوف أخبركم لحظة وصول الحفل مباشرة. عند دخولي إلى الدوار استقبلني استقبالا رائعا وحتى الفرقة الموسيقية التي كانت تنتظر قدومي ومستعدة له أتم استعداد. كان يتبقى ما يقرب من ساعة على موعد الحفل الرسمي الذي دعي إليه الأصدقاء والمعارف المقربون.

انتظرت في المندرة وإذا بالمفاجأة الأولى، كانت حبيبتي الأولى التي انفصلت عنها منذ ما يقرب من عشر سنوات ولكننا مازلنا أصدقاء فدائما أحافظ على علاقاتي وحينما أرحل أحرص دائما على أن أترك ذكرى جميلة أو جيدة من وجهة نظري. رأيتها جميلة مثلما كانت بل أكثر جمالا ورشاقة، زادها سمارها جاذبية إلى جاذبيتها وأضافت رشاقتها إلى جمالها فأصبحت كالغزالة في جسدها الانسيابي وصفاتها الوديعة وملامحها الهادئة ورشاقتها. لا أعرف كيف سحرتني منذ أن أطلت علي، هل لأنني لست مشغولا بإحداهن حاليا أم لأنني اشتقت إليها. اقتربت مني ور أيت الشوق في عينيها وبادلتها نظرات الشوق التي أحست بها فعبرت عن شوقها عندما صافحتني. ليتها دامت هذه اللحظات فلم أكد أجذبها إلي لأعبرعن إعجابي لأنها تحافظ على جمالها و أنوثتها البر اقة حتى حضرت الثانية، فإن كانت السمراء جذبتني فالبيضاء سحرتني، حبيبتي الثانية، لا تتعجب فالنساء عندي كالألحان عندما يأسرني لحن يطغى على سابقه. أطلت علي ببشرتها البيضاء كالثلج وكدت أغرق في أمواج شعرها عندما اقتربت مني والشوق يقتلني إلى لحظة من لحظات الماضي.

جلسنا ثلاثتنا نتسامر والشوق يحاصرني إلي الثانية ثم وجدت شوقي للأولى يصارع شوقي للثانية وها هي تتصارع الأشواق وقلبي يغرق في الحيرة. في نهاية الصراع استقر الشوق بينهما تجذبه السمراء وتحوطه البيضاء. عادت الحيرة مرة أخرى، هل أعشق السمراء أم البيضاء، يخدعك من يقول إن البيضاء أفضل أو السمراء أفضل فللسمراء

سحر وللبيضاء سحر آخر مختلف تماما وكلاهما سحر يأسرك. بعد قليل، جاءت الثالثة، قفز قلبي من مكانه عندما لمحتها عيني، هل كانت تعلم أنهما هنا، لا أعرف حقا. كانت إطلالتها أكثر جاذبية من ذي قبل، جاذبيتها هذه المرة لا تتعلق بجسدها الذي جعلها كالغزالة الشاردة ولا شعرها المموج كأمواج البحر الغاضب ولا بعيونها الأشد سحرا من عيون ماري لافو ملكة الفودو. كان لجاذبيتها طعم آخر، كانت ابتسامتها هي الآسرة. انضمت إلى مجموعتنا الصغيرة والشوق يفيض من عينيها وتسرب السحر إلى قلبي من يديها عندما صافحتني. كنت محاطا باثنين أصبحت الآن محاطا بثلاثة وزادت حيرتي بين السمراء والبيضاء والمرحة خفيفة الروح.

مضى الوقت سريعا وحاولت التملص من إلقاء الأغنية التي وعدت صديقي بها حتى لا أترك هذا الجمال الآسر وأمواج الشعور التي تلاطفني. أغراني هذا التجمع الذي لا أعرف إن كان مصادفة أم مؤامرة على قلبي الذي سحره سحرهن الأخاذ. عدت إليهن بعد الأغنية ولا أذكر ما غنيت فقد قلت كل الكلمات التي أحفظها من أغاني لكي أقول لهن أنني أريدهن الثلاثة، لا أستطيع الاختيار بينهن. انتهى اليوم كما تنتهي الأوقات الجميلة سريعا وعدت إلى منزلي لأبقي بين جدرانه، أسعد الناس بغنائي وأسعدُ بإعجابهم ولكن وحدتي في النهاية هي من تحاصرني ولو أنني أتمنى حصارهن مرة أخرى. كانت آخر مفاجآت هذا اليوم هو أنه يوم الثلاثاء وما كنت أحب هذا اليوم من قبل ولكن بعد ما حدث أصبحت أحبه جدا وكلما تذكرت ذلك اليوم أقول لنفسي «معقولة يوم تلات»

•••

حب الحياة

مرت السنوات سريعا ولم أشعر أنني وحيد وأحتاج إلى من يؤنس وحدتي إلا حينما تجاوزت الستين وتقاعدت عن العمل. ساورني شعور الرضا عما وصلت إليه من نجاح ولكن عاد القلق يطرق بابي فيما يخص مستقبلي وحياتي القادمة، ماذا سأفعل فيها و أنا وحيد بلا أنيس ولا ونيس. في الحقيقة، قابلت حسناوات كثيرات ولكن لم أشعر أنني بحاجة لإحداهن، لم أرَ فيهن ما يجذبني أو ربما تخيلت كذلك لأنني انشغلت بعملي عن فكرة الزواج فاعتبرته كل حياتي. بعدما وصلت لهذه المرحلة، فكرت في البحث عن زوجة ولكن أين وكيف؟ أشار علي أحد الأصدقاء أن النوادي الاجتماعية هي أفضل مكان أبحث فيه عن عروس أو يجب علي أن ألجأ إلى بعض الأقارب ليساعدني أحدهم في البحث عن ونيس لي في حياتي.

فضلت الفكرة الأولى وقررت أن أجرب وإن لم تكن ذات جدوى فسوف أجرب الثانية. ترددت على أحد النوادي الاجتماعية وعرفت أماكن تجمع كبار السن وبدأت أنضم إلى مجالسهم ولكن فضلت أن أختلي بنفسي في مقعد منفصل عن الجميع لأنني أريد التركيز في اختيار إحداهن. رأيتها تتهادى أمامي وتنظر إلي، إنها هي، أنا أعرفها، اقتربت وقالت «ألا تعرفني؟» ثم تبادلنا أطراف الحديث وتذكرتني وتذكرتها، إنها هي، ماجدة أو ماجي كما كانت تحب أن أناديها.

سألتها عن أحوالها وظروفها فعلمت أنها أرملة منذ فترة طويلة وتتردد على النادي. كانت زميلتي في الجامعة، فرقتنا الأيام وظروف الحياة بعد تخرجنا من كلية الحقوق، انشغلت بعملي ولم أعرف عنها شيئا بعد ذلك وفقدت كافة سُبل التواصل معها. لم أعرفها في البداية لأنها تبدو أصغر من عمرها الحقيقي بكثير، سألتها عن السر في ذلك، سر احتفاظها بجمالها ورشاقتها حتى أنني لم أعرفها لأنها أصبحت أجمل. راقتها الكلمات واهتز قلبي لابتسامتها، كانت تتهادى كأنها تتراقص على وقع كلماتي وحروفي. بعد حديث قصير أفصحت عن سر جمالها وهو أنها تداوم على الرياضة وتبتعد عن المساحيق وتقبل كل دعوات حضور الحفلات، قالتها بكل سلاسة «أحب أن أفعل ما أريد وقتما أريد بشرط أن يكون صوابا» بدأت تحكي وقلبي يسمعها قبل أذني فقالت:

« بعد وفاة زوجي بدأت أبحث عن شيء ليملأ الفراغ الكبير الذي يسيطر على حياتي. افتتحت مشروعا صغيرا لصناعة الملابس وإعادة تدويرها، يمكنك أن تقول «مصنع صغير»، وظفت بعض الفتيات وبدأت أهتم بالمشروع وأخطط لتطويره. أثناء ذلك كنت أفعل ما أحب، أذهب إلى الحدائق وأستمتع بالمساحات الخضراء الشاسعة و أقضي وقتي في القراءة بين الأزهار وألوانها الزاهية. أذهب إلى حفلات أقاربي وجيراني. أردت ذات مرة أن أركب الترومواي فسافرت إلى الإسكندرية لأستمتع به، جذبني التريفريك فلم أفكر لحظة وذهبت إليه حيث هو وركبته. خطرت لي فكرة تربية الأسماك ففعلت. أحببت أن أنظر إلى القاهرة من البرج ففعلت. ابتعدت عن كل المشاحنات، لم أدخل في جدال قط مع أحد

يجادلني بهدف أن يقنعني برأيه لا أن يسمعني. ابتعدت عن الحزن، عن الأشخاص السلبيين، عن مُصدري اليأس والإحباط. كنت أبحث عن الطاقة الايجابية ومن يبثها من حولي و أقترب منه»

أنهت حديثها بينما جاهدت أنا لأنهي حديث عيني إليها، ابتسمت وقد راق لي ما قالت. نظرت إلي و ابتسمت بدورها وقالت «و أنت ماذا فعلت لتبدو أكبر من عمرك الذي أعرفه» قلت لها «أحببت العمل فقط و ابتعدت عن الحياة، أما أنت فأحببت الحياة فأحبتك ومنحتك سر الطبيعة، سر الحياة». احمر وجهها وقالت «ما أجمل ما تقول»، ساد الصمت قليلا فبادرتها بقولي «هل تو افقين على أن تمنحيني سر الحياة بالقرب منك لأحب الحياة كما تحبين ونسترجع مشاعر ضاعت في غياهب الحياة». منحتني ابتسامة الحياة وقالت «وهل لي أن أرفض طلب الحب الذي أيقظ بداخلي مشاعر كثيرة نسيتها من بعدك».

•••

مشاعر سجينة

منذ الصغر و أنا أشعر أنني وحيد، آخر إخوتي قدوما إلى الحياة، أقلهم حصولا على حقوقي، أقلهم حصولا على اهتمام والدي. كنت أشكو دائما أن إخوتي يتفننون في مضايقتي، عفواً، قلت أشكو، نعم أشكو، ولكن لنفسي. ذات يوم كنت ألعب بلعبتي وكانت سيارة صغيرة تعمل بالبطارية. فرحتي بها كانت لا توصف لأنها أول هدية حصلت عليها من عمتي، أكرمها الله، ولكن لأن الصغير مغلوب على أمره ولا مجال للضعفاء في هذا العالم فقد أخذ إخوتي هذه اللعبة عنوة وجلست في ركن الدار أبكي، ليس الظلم فقط، ولكن أبكي وحدتي أيضا. تكررت هذه الحادثة كثيرا، إخوتي يأخذون متعلقاتي ويستولون عليها ولا أجد ملاذا إلا الركن البعيد لكي أبكي ظلم إخوتي وقسوتهم وعدم مبالاة والدي. مرت الأيام يوما تلو الآخر ومشكلتي تتزايد وتتعقد أكثر و أكثر حتى بلغت العاشرة تقريبا وعرفت معنى كلمة انتحار من التلفاز وكان هناك في أحد الأفلام طفل بائس مثلي يعاني من حياته كثيرا ولم يتحمل فأقدم على التخلص من حياته بشرب دواء والدته وبذلك تخلص من كل المعاناة، ليس التخلص من الحياة ومتاعبها وظلم إخوتي وقسوتهم فقط ما أضاء ركنا للفكرة في عقلي ولكن مقدار الألم والإحساس بالذنب الذي سوف أسببه لهم عندما يعرفون أنني تخلصت من حياتي بسبب ظلمهم وقسوتهم. أصبحت الإضاءة شديدة والضوء ساطع حتى سيطرت الفكرة

على رأسي ونفذتها، تناولت علبة من دواء أمي كاملة وعندما وجدوني ملقى على الأرض هرعوا بي إلى المستشفى واستطاع الطبيب أن يُسعفني ومرت هذه التجربة على خير. كانت تلك الفترة من أفضل فترات حياتي فقد أصبحت محط اهتمام الجميع، الجميع يتحدث إلي ويناقشني بل وحرص أبي على أن يأتي إلي باللعب الجديدة وينهر كل من يحاول أن يستولي عليها. أصبحت أتكلم مع أبي وأمي و أبث إليهما شكواي من أي شيء يضايقني. راقت لي فكرة المرض ليهتموا بي فبدأت أدعي المرض كل فترة لكي أحصل على الشحنة النفسية التي أحتاج إليها، كنت أشك أن والداي يعلمان أنني أدعي المرض ومع ذلك يتظاهران بالاهتمام ويزيدان من عطفهما علي وقربهما مني في تلك الفترة. اكتشفت بعد أن وصلت إلى الخامسة عشر أنني قليل الكلام جدا ولا أتكلم إلا مع أبي أو أمي لأشكو لهما فقط، ليس لي أصدقاء، إخوتي كالغرباء بالنسبة لي. في ذلك التوقيت بدأت أقرأ في كتب علم النفس وشعرت بضرورة الحديث إلى الناس، إلى الإخوة، الأصدقاء، الأقارب وبدأت بأسرتي وخاصة إخوتي ووجدت الأمر مغايرا تماما. بدأ الجميع ينصت إلي ويلبي طلباتي ورغباتي ويعيرني اهتمامه وبدأت أحصل على حقوقي وأشكو إذا حدث أي اعتداء علي، وبذلك استطعت أن أبث الشكوى ولكن كيف أعبر عن مشاعري الأخرى، اكتشفت أن ذلك يتطلب جهدا من نوع آخر. ذات يوم، وكنت قد أنهيت دراستي وحصلت على عمل جيد، زفت لي أمي خبرا سعيدا من وجهة نظرها، أخبرتني أن الله بعث لي عروسا جميلة. سألتني عن رأيي فلم أرفض ولم أتحمس للفكرة وفي النهاية و افقت على أن أخوض التجربة.

تمت الخطبة سريعا وللحق هي فتاة ممتازة في كل شيء وذلك شجعني على أن أتم إجراءات الزواج. تركت كافة التفاصيل الصغيرة للعروس لتختارها بنفسها، والحق يقال كانت أمي متعاونة جدا ولم تؤدي دور الحماة المعهود كما نراه في و اقعنا وفي أفلامنا. لم تربطني في البداية أي مشاعر بتلك الفتاة، لكن بمرور الأيام يوما تلو الآخر بدأ نوع من الألفة ينشأ بيننا، كانت رائعة جدا وتعبر عن حبها لي بسلوكها وهمسات عينيها وتلك هي المشكلة، ليست روعتها بالطبع ولكن طبيعتي أنا، كيف أعبر عن مشاعري تجاهها، كيف أعبر عن روعتها التي تزيد يوما بعد يوم. تعلمت بث الشكوى ولم أتعلم التعبير عن الحب بعد. استشرت طبيبا نفسيا ولم أقتنع بما برره لي بأن حالتي نفسية، لجأت لأبي و أفصحت له عن مشكلتي فمكث دقائق يفكر ثم أشار علي بفكرة جميلة، أخبرني أن أترك الأزهار تعبر عن حبي الذي يعجز لساني على البوح به ثم أشار علي أن أبدأ بأن أبوح لها ببضع كلمات مثل «أنتِ جميلة» «كل يوم أراك أجمل في عيني»، «حياتي أصبحت أفضل عندما قابلتك». ثم ختم نصيحته بقوله «اجعل سلوكك يعبر عن حبك ودرب نفسك على الكلام الجميل فكلاهما يكملان بعضهما البعض»

نفذت نصيحة أبي وعدت في اليوم التالي إلى المنزل محملا بالأزهار الجميلة وعندما فتحت زوجتي الباب وشاهدتها تعلقت برقبتي وأمطرتني بالقبلات. رأيتها في ذلك اليوم كأنني لم أرها من قبل، تلونت خدودها بألوان الأزهار وأضاء وجهها بنور الفرحة وأسمعتني كلمات ليست كالكلمات. يوما بعد يوم بدأت أردد بعض الكلمات التي نصحني بها أبي

ثم بدأت أكتب بعض كلمات الحب وأشعار الغزل على قصاصات ورقية صغيرة وألصقها على المرآة في غرفة النوم. فرحتها بكلماتي زادت سعادتي بها وحبي إليها، أيقنت أنني لست وحدي في هذا العالم، ثمة من يحبني ويساعدني ويجب أن أتواصل مع العالم وأعبر عما بداخلي، عن كل حالاتي.

•••

اختبار صعب

أكتب كلماتي وأرسلها من خلال برنامج الماسنجر الخاص بالفيسبوك وتأتيني ردوده كذلك

- هل حقا صورتي ر اقت لك؟

- بالطبع

- ولكنها ليست صورتي، إنها لممثلة مشهورة

تسود فترة من الصمت

- حقا، إن صوتك صور لي أنك تشبهين هذه الصورة، لابد أنك جميلة مثلها

- بالفعل، إنها تشبهني ولكنني لست جميلة مثلها

- بل أنت أجمل بروحك الطيبة المرحة، كفى أن تقبلي صداقتي رغم كآبة كلماتي، ولكن الحياة أصبحت أجمل بعد أن تزينت بك

- كفى هذه الكلمات الرقيقة، سأرسل لك صورتي الحقيقية

- لست مهتما بصورتك، فقط روحك الطيبة، جمال الشكل يزول بفعل الزمن وما يبقى هو جمال الروح، لن أقتني بورتريه لأضعه في صالة شقتي، بل سأختار روحا تر افقني حياتي

- كفى هذا القدر اليوم، لو استمرت كلماتك الجميلة تمطر أذني فأخشى أن أقفز داخل الكمبيوتر لأرى ذلك الفيلسوف الرومانسي الفنان الذي بداخلك، ألن ترسل لي صورتك لأراك؟

- أريد أن أقابلك لتشاهديني على الطبيعة حتى لا أرسل لكِ صورة ممثل و أقول لك أنا هو كما تفعلين بي

- حسنا، سوف أرسل لك عنوان الكافيه الذي أفضل أن أتناول الغداء فيه غدا

انتهى الحديث الأخير بيننا هذه المرة كما انتهى مرات عديدة، وفي كل مرة كنت أرسل إليه صورة على أنها صورتي ثم أفصح له عن حقيقة أنها صورة فنانة أو مجرد صورة على الانترنت. في تلك المرة الأخيرة شعرت بشفقة عليه من كثرة ما أرسلت له صورا غير حقيقية وكنت أحسده على طول باله و اتساع صدره، ولكن بعد أن طلب مقابلتي عرفت هدفه، إنه ككل الشباب، يكون طويل البال حتى ينال مراده ثم يتحول للنقيض، عرفت أن هدفه الرئيسي ليس شكلي و إنما شيء آخر. كنت أتوقع شيئا كهذا، أشعر بفداحة خطئي، فكيف أتحدث مع أحد لا أعرفه عبر الانترنت وكيف أستمر معه في الحديث يوما بعد الآخر حتى يتجرأ ويطلب أن ير اني، ولكن حب المغامرة ومعرفة حقيقته سيطرا علي وقررت أن أقابله ولكن بطريقتي الخاصة ودون أن يشعر أنني هي لأراه على حقيقته. أرسلت له تفاصيل أحد الكافيهات الذي أعرفه تماما، ذهبت قبل الموعد بفترة طويلة وجعلت هاتفي صامتا وأخرجت كتابا وتظاهرت بالقراءة بينما أر اقب باب الكافيه لأرى ذلك الوغد الذي نجح في إثارة فضولي لأراه. قرب الموعد، دخل شابان وسيمان من باب الكافيه، كان واضحا أن أحدهما كفيف والآخر صديقه الذي يوجهه، اقتربا من منضدة بجوار منضدتي وجلس الكفيف ثم همس إليه صديقه وتركه

وخرج. ظل الكفيف ينتظر وهو يضع ساعة يده على أذنيه بين الحين والآخر ليحدد الوقت. كان مبتسما هادئا يتحسس متعلقاته بين الحين والآخر، مر الوقت المحدد لحضور ذلك الوغد الذي أنتظره، حاولت أن أتظاهر بالقراءة ولكن عيني على ذلك الوسيم الكفيف، بدأ يتوتر وظهر ذلك التوتر في رعشة يديه وهو يتحسس هاتفه، ظل يداعب الهاتف لابد أنه يجري بعض المكالمات، نظرت بداخل حقيبتي فإذا بهاتفي يرن، يا الله إنه هو. لم أتردد في وضع حقيبتي بجواري وكأن شيئا لم يكن. كان الموقف صعبا للغاية، ليس لدي وقت للتفكير أو اتخاذ القرار السليم. أمسك هاتفه وأجرى مكالمة ما همسا فحضر الشخص الآخر على الفور فقال له بصوت كان مرتفعا بالقدر الكافي لكي أسمعه «هيا يا جاسر، لن أستطيع أن أضعها في هذا الاختيار الصعب، أحببتها من مجرد صوتها، جميلة كانت أو دميمة لن يضايقني ذلك في شيء ولكن حقيقتي هي ما سوف تضايقها، لماذا أضعها في هذا الاختبار الصعب، الحمد لله أنها تأخرت أو لم تأتي، من الواضح أنه قُدر لي أن أحيا وحيدا، فليس من حق أمثالي أن يحيوا حياة طبيعية مع من أحبوا حتى أصواتهم». ظهر الضيق والحزن على وجه جاسر وهو يوجه رفيقه وخرجا من باب المطعم. لم أملك الشجاعة الكافية لأكشف لهما حقيقة أمري. لقد اخترت حينما فضلت الصمت، اخترت ألا أضع نفسي في ذلك الاختبار الصعب.

•••

السر اليومي

استيقظت في ذلك اليوم على صوت أبي وهو يودع أمي صباحا ليذهب حيث اعتاد أن يذهب دون أن يعرف أحد وجهته. سألته أمي ذات يوم فابتسم ولم يرد فعرفت أنه أراد أن يحتفظ بذلك لنفسه فلم نسأله بعد ذلك أبدا.

تركت الفراش وتوجهت حيث أمي تقضي أغلب وقتها صباحا، في المطبخ، سألتها عن وجهة أبي فقالت «ألم أساله أمامك ذات يوم فلم يرد» ثم تنهدت وقالت «هكذا والدك يحتفظ ببعض الأسرار لنفسه ولا يفصح عنها إلا حينما يريد في الوقت المناسب كما يرى هو، يا ولدي لقد اعتاد والدك على هذا الروتين الصباحي منذ أن ترك العمل بعد أن أتم سن التقاعد، كل يوم يستيقظ مبكرا ويخرج من البيت لمدة ساعتين أو أقل ثم يعود كمن ولد من جديد.» سألتها مازحا «ألم ينتبك شك أين يذهب؟ ولماذا كل صباح ولماذا يعود سعيدا وكأنما ولد من جديد على حد تعبيرك». ما أثار حفيظتي رد فعلها على هذا السؤال حيث قالت «ثلاثون عاما ونحن كتابان مفتوحان لبعضنا البعض، لو كانت هناك أخرى كما تُلمح كنت سأعرف، إن والدك يفعل شيئا يسعده ويريد أن يحتفظ به سرا، بنسبة كبيرة يفعل خيرا ويريد أن يحتفظ به بينه وبين ربه»

مرت الأيام بعد ذلك الموقف و أبي يكرر هذا الأمر كل صباح حتى ذلك

اليوم و أنا في السنة النهائية في الجامعة قررت أن أعرف ماذا يفعل، استيقظت مبكرا وأخبرت أبي أن لدي محاضرات مبكرة وعلي الذهاب مبكرا. ارتديت ملابسي وخرجت من المنزل و انتظرت بعيدا وعيناي تنتقل بين ساعة يدي وباب المنزل، كنت أستعد لأر اقب أبي فقد بلغ بي الفضول مبلغا، كما توقعت مع دقات الثامنة خرج أبي من المنزل و اتجه إلى نهاية الشارع. استمرت متابعتي له من بعيد و أنا أر اقب خطو اته حتى عدنا إلى المنزل. صعد هو بينما توجهت أنا إلى الجامعة. أنهيت محاضر اتي ذلك اليوم وعدت إلى البيت فوجدت أمي جالسة تحيك بعض الثياب، ألقيت التحية فردتها بابتسامة ثم أخبرتني أن أبي ينتظرني في غرفته. زادت دقات قلبي حتى ظننت أن أمي سمعتها من شدتها. سألتها عن السبب فقالت إنها لا تعرف. تركت متعلقاتي في غرفتي وتوجهت إلى أبي في غرفته، دخلت الغرفة فوجدته جالسا فوق سريره، يريح ظهره. قابلني بابتسامة وقال «منعك فضولك بالطبع من ارتداء ملابسك أو أخذ حمامك قبل أن تعرف سر دعوتي لك، كما منعتك أن تنتظر أن أخبرك بسري ور اقبتني حتى عرفت ما أفعل يوميا»

سقط قلبي تحت قدمي، شعرت أن فمي أصبح جافا كجفاف النهر في السنوات العجاف، أردت أن أقول شيئا ولكن لم أستطع، ضاعت الكلمات وتاهت الحروف وتعلقت عيناي بالأرض خجلا مما فعلت وخوفا من ردة فعل أبي بعد أن تلاقت عيناننا. قال أبي وهو يبتسم «ألم تسأل نفسك كيف عرفت أنك تر اقبني، ولماذا أكملت ما أفعله بعد أن عرفت بأمر مر اقبتك لي. لن أثقل عليك فكفى ما أنت فيه، أما كيف عرفت ذلك؟ فالسبب ببساطة هو أنني أتابعك أنت وإخوتك يوميا منذ

كنتم صغارا حتى تخرجوا من الشارع وتعجز عيناي عن متابعتكم، ولما رأيتك تقف من بعيد علمتُ بأمر مر اقبتك. أما لماذا أكملت طريقي فلأني أريدك أن تعرف ماذا أفعل لتكمل مسيرتي وهذه وصيتي لك.»
كان الموقف رغم صعوبته بالنسبة لي إلا أن أبي جعله سهلا لينا كما كانت عادته، خرجت من عنده بحمل ثقيل فوق أكتافي. كان أبي يخرج يوميا يبحث عن المحتاج الذي استيقظ مبكرا ليبحث عن رزقه، عن العمال الذين يفترشون الطرقات بحثا عن لقمة العيش. كان يخصص مبلغا يوميا لهم، يعطيه لواحد أو اثنين أو ثلاثة. كان يعطي كل من يشعر أنه يحتاج، حتى من يمد يده، ولما سألته لماذا يعطي من يمد يده رغم أنه ربما يكون غير محتاج ويمتهن التسول فرد بقوله: قلت ربما يحتاج وربما لا يحتاج، وحين تعطي فإن عطاءك يقع في يد الله وليس في يده. أنا أعطي عمال البناء، عاملي النظافة، الباعة الجائلين وكذلك من يمد يده طلبا للمساعدة فلا يعلم من يحتاج منهم حقا إلا من خلقهم».
أضاف باسما «أتعلم أن هذا الأمر ربما كفاك وإخوتك زيارة الأطباء لأمر خطير أكثر من ثلاثين عاما، ربما كان سببا في ذلك، فقد قال الرسول «داووا مرضاكم بالصدقة»
انتهى اليوم وبدأت طريقا طويلا أوصاني به أبي أسير فيه بلا كلل أو ملل، طريق الصدقة. هنا عرفت السر في نشاطه اليومي وفي فرحته حين يعود كل يوم، فما أجمل أن ترسم ابتسامة امتنان على وجه ترهقه الحاجة التي تكفيه أنت شرها.

•••

الأخ وأخوه

عدت سريعا في ذلك اليوم أحمل أخبارا سعيدة لكل من أمي وأخي شريف الذي تكفل بالإنفاق على أسرتنا بعد وفاة والدي رحمه الله. كنت واثقا من النجاح ولكن الدرجات كانت تقلقني. اقتربت من المنزل فوجدت سيارة جميلة صغيرة الحجم رياضية تنتظر أسفل المنزل، تعجبت من وجود السيارة فهي ليست سيارة أخي شريف الذي اشتراها منذ سنوات من خلال عمله في مجال المقاولات الذي اشتهر فيه، فقد عمل بهذا المجال منذ سنوات وأثبت جدارته في أن يصبح صاحب شركة مقاولات في غضون سنوات قليلة.

صعدت سريعا درجات السلم لأن شقتنا في الدور الثاني ولم أستطع انتظار المصعد. ضغطت جرس الباب ففتح لي شريف على غير عادته ودون أن أنطق ضمني إليه وقال «ألف مبروك يا بشمهندس».

أخبرني أنه توجه إلى الكلية وعرف الخبر ولكنه لم يفصح لأمي لأنه يريد أن تأتي البشارة عن طريقي. توجهت إلى أمي وألقيت عليها البشارة ففرحت وظلت تدعو لي بالخير والتوفيق لي ولأخواتي. هذه الدعوات يمنحنا الله بسببها البركة والخير في حياتنا كلها

توجهت إلى شريف فوجدته يبتسم ويسألني عن السيارة أسفل المنزل وهل رأيتها فأخبرته أنها جميلة وسألته لماذا غير سيارته فالأولى تناسبه

أكثروتناسب وضعه وسط أصحاب الشركات والعملاء فقال إنه لم يغير سيارته ثم أسعدني بمفاجئته وقال إن السيارة هدية منه لي بمناسبة التخرج من كلية الهندسة.

رقص قلبي فرحا وعانقت أخي وأمي وخرجت سريعا لأرى السيارة. وضعت يدي عليها للتأكد من أنها ليست حلما. اقترب أحد الأطفال من أبناء الجيران من السيارة وتلمسها ثم نظر إلى وسألني هل هي جديدة فأخبرته أنها جديدة وأن أخي اشتراها لي. ابتسم الطفل وقال «أنا نفسي .... « ثم صمت دون أن يكمل جملته. سألته «نفسك تشتري زيها» فقال « لا، نفسي أشتري لأخويا زيها». لم أفهم قوله فطلب مني أن أصحبه لرؤية أخيه، ركبنا سويا السيارة حتى بيت قريب من بيتنا وتوقفت بالسيارة أمامه، نزل الطفل من السيارة ودخل البيت ثم خرج وهو يصحب أخاه الذي يعاني من شلل الأطفال، كان يعاونه على المشي، اقترب من السيارة ومسح عليها بيديه وقال «أنا هكبروأشتغل كتير جدا واشتري عربية زي دي ونركبها سوا وألف بيك في كل حته عايز تشوفها».

عرضت عليهما أن أطوف بهما في شوارع المدينة وو افقا سريعا وهما يبتسمان. ركبنا السيارة وظل الطفلان يضحكان ويمرحان. كان الطفل يشير إلى بعض الأماكن وهو يضحك ويحكي لأخيه عنها. عدنا إلى منزل الطفل ثم نزل وساعد أخاه حتى دخل المنزل.

•••

الجورب والقلم

أخرجت جوربي المقطوع من درج الكمود، هذا الدرج الذي أحتفظ فيه بكل نفيس ذا قيمة. نظرت إلى الجورب و ابتسمت ثم تكدست السحب في عيناي، قاومت لكنها أمطرت. تذكرت أمي وهي تحيك لنا الجوارب مساء قبل عودة أبي من عمله. لهذا الجورب قيمة خاصة لدي. تذكرت ذلك المساء الذي حضر فيه أبي من الخارج وهو يحمل صندوقا من الكرتون، نظر إلى أمي وكانت لا تزال تمسك الجورب في يدها و إبرة الخياطة في اليد الأخرى وقال لها «اتركي ما بيدك فقد أحضرت جوارب جديدة، اتركيها ولا تحيكي الملابس مرة أخرى فإن عينيك تؤلمانك، لا تحيكي ملابس أخرى واطلبي ما شئت فسوف يعينني الله وأحضر ما تطلبون، إن صحتك أهم عندي من أي مجهود». ابتسمت أمي وقالت بعينها الكثير مما عجزت أن تفعله أمامنا. تركت أمي الجورب وطلبت مني أن أضعه في سلة المهملات فقد اشتكى من كثرة الحياكة. أخذته ولكني وضعته في صندوق خاص أضع به ما أريد أن أحتفظ به.

بعد هذا اليوم، لم تضطر والدتي أن تحيك شيئا آخر فقد تيسر حالنا ورزق الله أبي مالا وفيرا و انتقلنا إلى بيت جديد، وعندما جاء خالي رحمه الله لزيارتنا قال لأبي جملة لن أنساها «لقد يسر الله عليك كما يسرت على زوجتك وأولادك». بات هذا الجورب يحمل لي ذكرى خاصة، أخذت الجورب من الكمود ودخلت على أبنائي وهم يلعبون فقلت لهم «هل

تريدون أن أقص عليكم اليوم حكاية جميلة؟»، عمتهم الفرحة العارمة وو افقوا، هذا ما يبقى ذكرى بين الآباء و أبنائهم، سيذكرون فقط لحظات السعادة بينهم، متى لعبوا، متى خرجوا، يتذكرون الأوقات الجميلة فقط ويقولون متى تعود. ترك الأبناء ألعابهم والتفوا حولي فما أحلى الأوقات التي تجمعنا مع أبنائنا، سردت عليهم قصة الجورب فاستمعوا و أنصتوا ثم قال ابني الأكبر كريم «عندي تذكار مثله يا أمي» ثم ذهب إلى غرفته وأحضر صندوقا جميلا، وهنا صحت «إن التاريخ يعيد نفسه، نفس الصندوق، يا الله!!!». ابتسموا جميعا لعبارتي ثم توجهنا إلى كريم الذي أخرج من صندوقه قلما به ساعة رقمية وقال «سوف أحكي لكم حكاية هذا القلم». تقمص كريم دور القاص وجلسنا حوله نستمع إليه بإنصات فقال «ذات يوم أحضر لي أبي هدية في عيد ميلادي وكانت قلما به ساعة رقمية ويشبه هذا القلم. في اليوم التالي، ذهبت إلى المدرسة ومعي القلم ورآه كل زملائي ونال إعجابهم جميعا، ولكن حاول أحد زملائي أن يخطفه فوقع وكُسر، حزنت بشدة وبكيت كثيرا ولكن زملائي حاولوا تهدئتي ولكني رددت كثيرا «هذا هدية أبي». علم معلم اللغة العربية بذلك فحضر على الفور واستمع لزملائي وهم يروون له ما تم، ربت على كتفي وظل يهدئ من روعي حتى هدأت و انتهى اليوم الدراسي. عدت إلى المنزل حزينا وجاء أبي متأخرا فلم أره لأخبره بما حدث. في اليوم التالي، ذهبت إلى المدرسة فوجدت معلم اللغة العربية قد أحضر لي قلما يشبه قلمي الذي كُسر وقال لي «هذا هدية مني لك» شكرته وحاولت أن أعتذر عن قبوله وأخبرته أن أبي لو علم بالأمر

سيحضر لي غيره فقال لي «حُبك للقلم لأنه هدية والدك، جعلني أحب أن أحضر لك مثله وكلما رأيت هذا القلم تذكر أن تقديرك لما أهداه لك والدك هو السبب الرئيس في أن أهديك إياه». أنهى كريم قصته فشردت قليلا ونظرت للجورب ثم للقلم ثم لكريم الذي علمتني قصته قيمة أخرى لهدايا أحبابنا غير الحنين إليهم.

•••

العجوز والهاتف

لاحظت أن وسام ابنتي التي لا تتجاوز العامين تمسك هاتفي وهي صامتة دون أن تلعب به أو على الأقل تُشير لي كي أفتحه لها كالعادة. شعرت بالدهشة مما تفعل حيث كانت و اقفة تمسك بالهاتف وهي حزينة وتنظر إلي. اقتربت منها وعرفت السبب وكان غير ما توقعت، كان الهاتف صامتا تماما، ضغطت زر الفتح والغلق فلم يستجب. الآن عرفت سبب حزنها، لقد أفسدته. نظرت اليها نظرة عتاب ولو أنني أشك أنها تفهم ذلك وبحثت عن زوجتي وأخبرتها عما فعلته ابنتنا العزيزة فغضبت وقالت «هذا نتيجة تدليلك لابنتك»، ابتسمت رغم المشكلة وقلت لها «الآن تطلقين عليها ابنتي أنا وعندما تفعل الشيء الصواب أو المميز تصبح ابنتك وحبيبتك». بادلتني الابتسامة وقالت «بالضبط هو كذلك». لا أعرف لماذا أخذت الموضوع ببساطة هكذا ربما لأنني كنت هادئ المزاج في ذلك التوقيت وهكذا نحن البشر تختلف ردود أفعالنا باختلاف الحالة المزاجية. أخذت الهاتف وذهبت إلى محل أحد الجيران المتخصصين في اصلاح الهواتف. أمسك الهاتف وسألني عن السبب فحكيت له الموقف فقال «إن شاء الله شيء بسيط». فحص الهاتف بأدواته وشعرت للحظة أنه طبيب ماهر وهاتفي هو مريض بين يديه. بعد دقائق أخبرني أن العطل بسيط والحمد لله. بينما أجلس معه وهو يصلح العطل دخل رجل كبير السن وأعطى الهاتف بلا مقدمات إلى

جاري العزيز وقال له «من فضلك، افحص هذا الهاتف، هل هو يعمل بشكل جيد أم به عطل». نظر إلي جاري ثم نظر إلى الهاتف وتظاهر أنه يفحصه ثم أعاده إلى الرجل وقال له «إن الهاتف يعمل وبحالة جيدة». رد الرجل وعيناه تلمعان بالدموع «إذن لماذا لا يتصل بي أبنائي؟، أرجو أن تفحصه مرة أخرى يا بني». تناوله الرجل مرة أخرى وتظاهر بفحصه شفقة على حالته وحتى لا يغضبه ولكي «يجبر بخاطره» وطلب منه أن ينتظر حتى يتفحصه بعناية. جلس الرجل صامتا وهو يحاول أن يهدأ ثم مال علي جاري وقال هامسا «هذا الرجل يأتي كل يومين أو ثلاثة ويعطيني نفس الهاتف لكي أصلحه. إن الهاتف يعمل ولكن قلوب أبنائه هي ما توقفت عن العمل، إن الرجل لا يصدق أن أولاده يتجاهلونه وكأنه غير موجود في الدنيا، إنه ينتظر فقط مكالمة منهم للاطمئنان عليه». شعرت بالحزن لحالته وتحول حزني إلى خوف أن ألقى نفس مصيره، تصورت نفسي مثله أنتظر بجانب الهاتف متلهفا لمكالمة من أبنائي وهم لا يعيرونني أي اهتمام. خرج الرجل متجها إلى بيته بعد أن أكد له جاري أن الهاتف يعمل بشكل جيد ولا يوجد به أي عطل. خرجت خلف الرجل بعد أن عاد هاتفي إلى الحياة من جديد وطلبت منه أن يعطيني الهاتف لكي أفحصه فربما يوجد به عطل غير ظاهر، عرض علي الرجل أن أصحبه إلى بيته فهو يشعر أن قدميه لا تستطيعان حمله وهناك يمكن أن أفحص الهاتف بعناية فو افقت على الفور و أنا أرسم الابتسامة على وجهي. ذهبنا إلى بيته فاستأذنته أن أحصل على أرقام هو اتف أولاده فو افق دون أن يسألني عن السبب وأخبرني بأسمائهم

ثم دخل إلى إحدى الغرف. استطعت أن أحصل على أرقام هواتفهم وسجلتها على هاتفي. خرج الرجل من الغرفة ثم دعاني لأساعده في عمل كوبين من الشاي، و افقت بكل سعادة وأعطيته هاتفي وطلبت منه أن يسجل رسائل إلى أولاده وسوف أرسلها لهم عبر الانترنت، و افق الرجل بسعادة بالغة، أعددت الشاي ثم خرجنا إلى غرفة الصالة وجلس بهدوء، ضغطت له زر التسجيل وبدأ في تسجيل رسالة إلى أبنائه الثلاثة يطالبهم فيها أن يسألوا عليه ثم أعطاني الهاتف بعد أن انتهى من حديثه ولكن الهاتف مازال يسجل فسألته «لماذا تعتقد أن هاتفك به عطل وتذهب به إلى جارنا لكي يصلحه رغم أنه أكد لك أنه يعمل بشكل جيد أكثر من مرة؟» فقال بعد أن ترك كوب الشاي واغرورقت عيناه بالدموع «لأنه ليس من المعقول أن أولادي الذين ضحيت بعمري لأجلهم، لأجل أن يدخلوا أفضل المدارس وضحيت براحتي بعد وفاة والدتهم فلم أتزوج مرة أخرى، ضحيت بكل ما أملك، ضحيت حتى بمكافأة نهاية عملي لأحضر لهم شققا يعيشون فيها مع أبنائهم وسيارات يركبونها، ضحيت ليصبحوا الطبيبة والمهندس والضابط. ليس من المعقول أن أضحي بكل هذا ويتركوني وحيدا بين الجدران ولا يسألون عني حتى بمكالمة هاتفية، هل «هُنت» عليهم لهذه الدرجة، هل تملّكت القسوة من قلوبهم لهذه الدرجة؟» لحظات صمت مرت حاول فيه الرجل أن يتماسك بعد أن غلبته الدموع وبدأ يبكي كالأطفال ثم أضاف «يا بُني أنا أشحذ المساعدة من الناس في الشارع لأستطيع أن اشتري الخبزوالطعام» صمت قليلا ثم أشار إلى الهاتف وهو لا يعلم أنه ما زال يسجل وقال «سجل ما سأقول

وأرسله لهم: أريد حقي، أعيدوا لي الحب والحنان الذي أفنيت عمري أعطيه لكم، ردوا لي حقي، كنت أسقيكم حبي وحناني وعطفي والآن أنا أريد ما أعطيته لكم، لا أريد زيادة «. مرت لحظات أخرى وقال الرجل وقد غلبه الحزن والأسى «الاهتمام لا يُطلب يا بُني، يبدو أن العطب ليس في الجماد ولكنه في قلوب البشر التي أصبحت كالحجارة بل أشد قسوة». سجلت له كل حديثه وأرسلته إلى أرقام أولاده بعد أن تركته عسى أن يستيقظوا من سباتهم العميق، عسى أن ترق قلوبهم. بعد أن أرسلت الرسالة سألت نفسي «وهل تفعل الرسالة ما لم تفعله الأيام؟ ألم يشتاقوا إلى أبيهم؟ هل لديهم قلوب لكي ترق؟ هل لديهم ضمير ليستيقظ؟» لقد أيقظت حالته بداخلي خوفا كبيرا من أن أصبح مثله في يوم من الأيام، كنت أحتضن ابنتي الصغيرة وأطلب منها ألا تتركني عندما تكبر. حرصت على زيارة هذا المسكين يوما بعد يوم وكنت أحيانا أذهب معه إلى محل جاري ليفحص هاتفه ر افضا فكرة أن العطب في قلوب أولاده وليس في الهاتف.

•••

مذاق الكلمة

دعاني أحد الأصدقاء إلى حفلة عقد قرانه بمنطقة شبرا، بحثت عن وسيلة مواصلات فلم أجد غير سيارة نقل الركاب الكبيرة وتسمى «سيارات الجمعية» لأنها تتبع جمعيات نقل الركاب. كان الطريق مزدحما كالعادة، وازدحمت السيارة لآخرها. وقفت السيارة في الزحام أثناء مرورها على كورنيش النيل، كانت هناك سيدة تجلس على أحد المقاطع الموجودة على الكورنيش. كانت السيدة تنظر إلى اللاشيء، ربما كانت لا ترى السيارات التي تمر أمامها. نظر إليها مساعد السائق «التباع» وقال لها «يا تخينة، أنتي كتير أوي كده ليه؟ اطلع يا اسطا لتبلعني» ثم ظل يقهقه بطريقة أثارت سخط بعض الركاب. قال له أحدهم وكان شابا في العقد الثاني «أنت عارف الكلمة دي ممكن تعمل فيها إيه، ممكن توجعها وتسسببلها ألم لدرجة إنها متنمش أو تحصلها انتكاسة لو كانت مريضة» قال المساعد «أصلها تخينة أوي وبعدين معقول كلمتين يأثروا فيها كدة»، فرد آخر وقال له «هي بتاكل من أكلك، وبعدين أنت عارف إيه سبب اللي عندها ده، ممكن يكون مرض»، قال ثالث له «دوق طعم الكلمة قبل ما تقولها، ممكن الكلمة دي تجرح، تألم، وممكن تقتل، وربنا مش هيسيبك إلا لما تترد لك»، ثم روى له قصة عالم من علماء المسلمين غيرت كلمة حاله حيث روى له قصة ابن سيرين وكان تاجرا ذكيا ومن الأغنياء ثم افتقر فجأة و أفلس، فتذكر ما حدث قديما وما

هو سبب فقره بعد غناه وقال إن الله رد له كلمة قالها من أربعين سنة، حيث قال لأحد الرجال يا مفلس فأفلسه الله وأذاقه الفقر بعد العز والغنى حتى يتذوق طعم الكلمة التي قالها للرجل وعايره بها

اقترب رجل من الباب وهم أن ينزل ولكنه قال «عارف يا ابني، النبي سمع السيدة عائشة قالت على واحدة يا قصيرة « فقال لها فيما معنى الكلام « إن الكلمة دي لو اتحطت في مية البحر هتعكرها من شدة سوئها «

نظر السائق للخلف بينما السيارة متوقفة في إحدى إشارات المرور الكثيرة والازدحام المروري على الكورنيش وقال «ياه دا الموضوع طلع كبير أوي يا ابني، استغفر ربنا»، فرد التباع «أستغفر الله العظيم، مش هعمل كده تاني» ساد الصمت برهة ثم قال رجل كان بجانبي « كل واحد ربنا ابتلاه بشيء، فيه اللي ابتلاه في رزقه، أو أولاده أو زوجته أو صحته وفيه اللي ربنا بيحبه وهو اللى ربنا يهب له الرضا، مش السعادة، لأن الرضا هو طريق السعادة في الدنيا والآخرة، عشان كدة ربنا قال «ولسوف يعطيك ربنا فترضى» ومقلش فتسعد، ربما هي كدة وراضية بحالها ولكن كلمة زي دي ممكن تخليها تحزن لدرجة تفقدها لحظة الرضا اللي عيشاها».

•••

أشياء ليست لنا

انتهيت من نوبة عملي الثانية وكان بصحبتي صديقي وليد، بدون مقدمات وبشكل مفاجئ ارتفع صوت الكاسيت في سيارة نقل الركاب «الميكروباص» التي ركبناها معا في طريق العودة إلى المنزل. فبالإضافة إلى أنه زميل عمل فهو جاري في نفس منطقة السكن. تصاعد الصوت تدريجيا وأغنية عمرو دياب «أنت مغرو» ارتفعت وفجأة أيضا وبدون مقدمات صرخ صديقي وليد قائلا «لا حرام كل الأغاني هجر وعذاب وفراق، من حقي ألاقي أغاني تعبر عني، أنا عندي خمسة وتلاتين سنة، عايش في عذاب الأقساط والعيال والأدوية» تعالت الضحكات في السيارة فرد أحد الركاب «عندك حق، أنا محدش بيقولي أنت مغرور، أنت معدوم الشعور، أنا بسمع بس « أنت مخصوم لك يومين، أنت يا بابا رايح فين». تزايدت الضحكات بعد كلمات هذا الأخير.

قمت بتهدئة صديقي فصمت قليلا ولكن باقي الركاب انطلقوا يتسابقون في التعبير عن افتقادهم لمن يعبر عنهم في الأغاني والمسلسلات وحتى الأفلام. سمعت أحدهم يهمس لصديقه «فعلا، عايزين حد يتكلم عن الحب بعد الزواج، بعد الأطفال متشرف وشكله بيبقى إزاي، هو مفيش حد بيحب إلا المراهقين، مفيش حب إلا تحت العشرين، عايزين حب المتزوجين». انطلق صديقي قائلا» فاكرين أغنية نادية مصطفى «جاي في إيه وسافرت في إيه» كسرت الدنيا عشان كانت بتمثل شريحة كبيرة

مفتقدة الأغنية اللي بتعبرعنها». سادت بعض الهمهمات لفترة قصيرة. قال أحدهم «عندك حق إحنا قابلنا اللي ارتبطنا بيه، لازم يغنولنا عن لذة إنك تكون مع زوجتك حبيبتك تحت سقف واحد وتتحملك وتتحملها، عن بنت الأصول، عايزين مسلسلات عن الزوج الرحيم بزوجته والزوجة المخلصة اللي شايلة زوجها على الحلوة والمرة، عن عطف الآباء على الأبناء ورحمة الأبناء بالآباء، عن مشكلات المراهقة وإزاي يواجهها «

نظر لي صديقي بعد أن استمع معي إلى باقي الركاب وقال لي «شايف، كله بيعاني إن مفيش أغنية بتعبرعنه، مفيش دراما بتعبرعنه، مفيش حاجة بتعبرعن الأب اللي بيشتغل ورديتين أو في مكانين عشان يكفي أولاده وبيته، عن الأم المظلومة، المعدومة، اللي بتضحي بأعصابها وشبابها و أنوثتها عشان تربي أولادها». قال لي تلك الكلمات ثم نظر أمامه وصمت. خيم الصمت على الركاب حتى وصلنا كل إلى مبتغاه.

•••

كلمتي

في ذلك اليوم ذهبت إلى بيت أسرتي بحقيبة ملابسي غاضبة من زوجي. كانت المرة الأولى التي يفعلها زوجي ويغضبني لهذه الدرجة. علمت والدتي بمجرد رؤيتي ما حدث فلم تلمني على شيء في البداية ولكنها استفسرت فقط عما حدث وطلبت مني أن أدخل لأستريح في غرفتي. في المساء، حضرت حماتي إلى بيتنا وجلست تتحدث مع والدتي ثم طلبت أن تتحدث إلي في حضور أهلي. جلست معها في حضور أمي وقالت «تذكرين يا ابنتي منذ ما يقرب من ثلاثة أشهر كان ابني يمر بضائقة مالية هي الأولى منذ زواجكم ووقتها قلت له بضعة كلمات تسببت في جرح كبير ترك أثراً عميقا في قلبه، أتذكرين؟ أنا أذكر بالفعل ما قلت له «البنت محتاجة طلبات وولادك محتاجين فلوس و أنا كمان ولو مش قادر تتصرف كنت بتتجوز ليه، راجل يعني قادر يعمل أي حاجة، عجزت متبقاش راجل». قلت لها «أيوه فاكرة «، قالت «و ابني عمل إيه؟»، طال الحوار بيننا حول ذلك الموقف وعلمت منها أن زوجي، خريج كلية العلوم عمل في مقهى ومطعم ثم عمل سائقا حتى استطاع أن يفتتح مختبرا للتحاليل الطبية وتحسنت حالتنا المادية وتحملني زوجي في ذلك الموقف ولم يرد بل خرج وطال الصمت بيننا وخيمت سحابة على حياتنا ثم مرت بسلام واعتذرت لزوجي وتقبل اعتذاري ولكن شعرت أنه لم يصبح مثلما كان، أصبح شخصا آخر. لا أستطيع أن أحدد عيبا جديدا ظهر فيه أو سلوكا

جديدا طرأ عليه أو تغييراً ملحوظاً في شيء محدد ألم به ولكنه تغير، أنا امرأة وأعلم أن زوجي تغير، أشعر أن زوجي نقص منه شيء. أخبرت حماتي بذلك، أخبرتها أنني أشعر أنه منذ ذلك الوقت وزوجي قد نقص دفئه معي، قالت حماتي «سأحكي لك قصة صغيرة يا ابنتي، تخيلي أن معك طبقا به عشرون تفاحة، ثم اقتربت من أخيك الذي كنتِ ستقدمين إليه التفاح فدفعك بقصد أو بدون قصد، وقع الطبق وكُسر وتناثرت حبات التفاح في كل مكان، حاولت أن تجمعي أكبر قدر من التفاح لتعطيه إليه، كم ستجمعين؟ ثلاثة أو أربعة ولكن لن تستطيع يدك أن تجمع أكثر من ذلك، سوف تعطيه التفاح، بعض التفاح وليس كله. هكذا القلوب يا ابنتي، إن كُسرت فإنها لن تعطي كما لو كانت سليمة، هذا ما حدث مع زوجك، كُسر قلبه فأصبح يحب ويعطي ولكن ليس بنفس حالته وهو سليم مُعافى.»

شعرت بالحزن حقا مما سمعت، لقد أوصلت لي ما تود قوله وشعرت أنا بفداحة ذنبي وهربت الدموع من عيني فقالت برفق «نصيحتي لك يا ابنتي أن تبحثي عن طبق جديد تجمعي فيه حبات التفاح».

•••

كلهن أمي

و افق مديري أخيرا على نقلي لأعمل في نفس القسم الذي يعمل فيه صديقي معتز. الحق يقال إنه كثيرا ما طلبت من المدير نفس الشيء حتى سنحت الفرصة وو افق المدير على أن يجمعني بصديقي قسم واحد.
في أول يوم عمل معه في نفس القسم شاهدته كما كنت أعتقد شديد الحماسة والهمة في عمله، ينجز العمل سريعا ولكنه يضيع بعض الوقت في المكالمات التليفونية. حقا هو يتصل من هاتفه ولكنه يضيع وقت العمل. لا أستطيع أن أجزم بذلك لأن نشاطه وحيويته تعوض هذا الوقت الذي يضيعه في المكالمات وكأنه يفعل ذلك لأجل هذا فهو ينجز جميع المهام الموكلة إليه في وقت قياسي ثم يتفرغ بعض الوقت لعمل هذه المكالمات.
غلبني الفضول و اقتربت من مكتبه كلما هم بالحديث هاتفيا، علمت بعد أكثر من مكالمة أنني ظلمته لأنني سمعته وهو يبدأ المكالمات بكلمات الثناء والاشتياق إلى والدته ولم يبدأ أو ينهي مكالمة إلا ويقول «وحشتيني يا ماما». شعرت كم أنني مقصر في حق أمي، أحدثها مرة واحدة يوميا أطمئن عليها وعلى أحوالها وأطمئن على أبي ولكن صديقي معتز يحدثها كل ساعة تقريبا ويمتد حديثه معها إلى نصف ساعة أو يزيد بينما لا تستغرق مكالمتي مع أمي سوى دقائق معدودة. سألت نفسي «ما كم الحب والألفة الذي يتجدد يوميا بينه وبين أمه، وإن وجدت الألفة وتجددت وتجدد الحب فمن أين يأتي بكل هذا الكلام «ثم تمنيت لو

أستطيع أن أفعل ذلك مرة أو مرتين في اليوم.
أنهيت بعض الأوراق وأخذت هاتفي من فوق المكتب وقمت بالاتصال بأمي واطمأننت عليها وعلى أبي وكانت أمي سعيدة بذلك جدا وكذلك والدي، بعد بضع ساعات كان صديقي قد تحدث ما يقرب من ستة مرات إلى أمه. أعتقد أنه رقم قياسي بينما أنا هاتفت أمي مرتين واعتبرته انجازا.
لاحظت أنه يمسك هاتفه ويبتسم فاقتربت منه ودار حديث بيننا، سألته «بالتأكيد تحب أمك جدا يا معتز». أجابني دون أن يلتفت إلي «بالتأكيد أحبها وأدعو لها بالرحمة يوميا و. . . . ». قاطعته قائلا «تدعو لها بالرحمة!!»، قال بعد أن ترك هاتفه ونظر إلي بتعجب «نعم، لقد توفيت منذ خمس سنوات، ألا تعلم، لقد كنت تقف بجانبي في العزاء». هنا وبحركة لا شعورية لطمت جبهتي و أنا أقول «أخ»، بالفعل لقد توفيت والدتك» ثم عاجلته بسؤال «إذن من تحدثها كل نصف ساعة تقريبا وتناديها بأمي؟» ضحك معتز حتى رجع برأسه إلى الخلف وقال «هؤلاء بعض صديقاتي و أناديهن ب «أمي» حتى لا يحدث خطأ في أسمائهن لأن عددهن كثير وموضوعاتهن متشابهة». انتابتني حالة هستيرية من الضحك وقلت له «لقد كنت على وشك أن أبكي بين يديك حزنا على حالي من شدة برك بوالدتك واعتبرتك مثلا للابن البار». ضرب معتز كفا بكف وضحك كثيرا واستمر لنهاية اليوم على هذه الحالة من الضحك كلما نظر الي وهو يكرر «أمي، أمي، كلهن أمي»

•••

يُدبر الأمر

بينما أنا في زيارة أختي، عاد ابنها هشام من الخارج، كان عائدا من الجامعة وكان في السنة النهائية، كان حزينا لدرجة كبيرة، سألته عن السبب فقال بعد إلحاح إنه أراد الارتباط بزميلة له في الجامعة ولكن والدها رفض بعد أن علم بالأمر. قال هشام وقد أوشك على البكاء «لقد رفضني يا خالي دون أن ير اني، ما زاد من حزني وأسفي هو أن زميلتي انصاعت لأمره ولم تناقشه ولم تدافع عني بل أخبرتني به كأنها تخبرني أنه رفض شراء فستان جديد لها، كأن الأمر لا يعنيها. لم تكلف نفسها عناء النقاش أو المجادلة مع والدها، حتى أنني أشك أن الأمر قد راق لها». كان حزينا لدرجة أنني فضلت ألا أكلمه في هذا الأمر.

عدت إلى المنزل بعد أن تناولت الغداء مع أختي وأولادها وزوجها محمود صديقي. عدت إلى منزلي وحيدا بعد أن تركني أولادي وسافروا للعمل بالخارج وتركتني زوجتي قبلهم وذهبت إلى خالقها.

أعددت فنجان من القهوة والحمد لله أنني مازلت بصحتي لأعد فنجان القهوة السادة المفضل لي. جلست أمام مكتبي وأخرجت ملفا به أوراقي التي أحتفظ بها ومجموعة من الذكريات التي أعتبرها بقايا حياتي الماضية، لحظات الحنين التي تشكل مذاق حياتي الباقية وكانت كل قطرات الحنين في ملف ذكرياتي. غرقت في ذكرياتي لفترة طويلة وكأنني في حلم جميل ولكن أيقظني هشام من هذا الحلم الجميل المحبب لي

بمكالمة تليفونية يخبرني أنه ينتظر أسفل بيتي ويريد أن يتحدث معي قليلا لأنه لم يستطع أن يمكث بالمنزل. دعوته للصعود ليمكث معي قليلا، صعد بالفعل وكانت حالته ما زالت سيئة، لمح ملف ذكرياتي وفيه صورة زوجتي ووالدها رحمهما الله فوجدتها فرصة مواتية لأخفف عنه فحاولت بأسلوبي أن أشوقه ليسمع قصة زواجي فرحب وبدا مستعدا بل تشجع وقال:

- أستحلفك بالله يا خالي أن تحكيها لي فربما يشغلني بعض الوقت عن هذا المزاج السيئ الذي يلازمني

ضحكت قليلا وسردت تفاصيلها كما سأسردها لكم الآن

ذات يوم ذهبت لأتقدم لخطبة فتاة كانت زميلتي في الجامعة، ذهبت إلى بيتها وقابلت والدها وأخبرته برغبتي في الارتباط بابنته وأوضحت له كل ظروفي فرفض الرجل بشكل قاطع، رفض حتى أن أزيد له من تفاصيل صغيرة في حياتي و أيقنت أن هذا الرجل يضمر شيئا في نفسه، فربما لم أعجبه بسبب حالتي المادية وربما كان يدخر لابنته عريسا جاهزا. خرجت و أنا في قمة الحزن وكان أذان المغرب يتصاعد من عديد من المآذن في الحي. دخلت أول مسجد قابلني وأديت الصلاة وجلست بعد الصلاة قليلا وكانت حالتي يرثى لها، حزن اختلط بغضب وقنوت. بينما أنا في هذا الوضع أرتدي قناع البؤس ويكسو الحزن وجهي إذ شعرت بيد تربت على كتفي، نظرت للخلف فرأيت رجلا بشوشا سمحا يشع الضوء من وجهه فوجدت طمأنينة تسربت إلى قلبي، للحظات تخيلت أنني في حلم جميل وأن هذا الوجه الطيب جاء ليطمئن قلبي ويهدئ من

روعي ولكنها كانت الحقيقة، كان رجلا بشوش الوجه، لين القول. سألني عن حالي وعن سبب حزني. ترددت في البداية أن أحكي له قصتي لأنني لا أحب الشعور بالشفقة ولكن وجدت لساني ينطلق بعد إلحاح منه وكأنه والدي ويريد أن يطمئن على حالي. أفضيت له بمكنون نفسي. ابتسم الرجل فزادت بشاشة وجهه ودعاني لأتناول العشاء معه، حاولت أن أرفض بشيء من الذوق ولكن الرجل أصر إصرارا عجيبا بل أقسم علي لأذهب معه، خرجنا من المسجد في طريقنا إلى منزله. كانت دقات قلبي تتصاعد ونحن نتجه صوب منزل زميلتي، بل كاد أن يقفز ونحن نقترب منه بالفعل ودارت الكثير من الظنون برأسي ولكن أيقظني صوت الرجل وهو يدعوني للصعود إلى منزله المجاور لمنزلها. هدأت قليلا وصعدنا سويا، طرق الباب ثم فُتح وكنت أبتعد قليلا عن وجهة الباب، دعاني لأتبعه حتى إحدى الغرف ثم جاء بالعشاء وتناولناه سويا بمفردنا، بعد تناول الطعام تكلمت معه كثيرا وحكيت له عني وعن أسرتي ولحسن الحظ، أو من حسن حظي أن كوب الشاي الزجاجي وقع مني وكسر وبحركة تلقائية حاولت أن أجمع الزجاج المكسور المتناثر، رغم تحذير الرجل، فجُرحت يدي وسال الدم منها. اتجه الرجل للداخل وجاء بصندوق الإسعافات الأولية مثل مطهر الجروح وأشياء من هذا القبيل وجاء بملاكي التي سلبت عيناها قلبي وعقلي على حد سواء. كانت على دراية كافية بأمور التمريض فطهرت الجرح كما طهرت قلبي من حب لم يكتمل. في اليوم التالي وجدني الرجل على بابه فرحب بي وتفاجأ لأنني أتقدم لخطبة ابنته، ملاكي الذي أسرني، وأخبرته أنني سوف أحضر والدي إذا و افق

على شخصي، قالها الرجل وقد امتزجت الحروف بالسعادة «في انتظار والدك» طار قلبي فرحا وتمت الخطبة فعقد القران ومرت حياتي بسلام فوق أمواج الحياة التي تثور ثم تهدأ حتى جاءت هذه اللحظة التي أجلس فيها معك الآن.

ابتسم هشام وقال:

- «قصة غريبة وجميلة، ليتك قصصتها علي من قبل

ابتسمت و أنا أمسك صورتها وقلت له

- لاحت هذه الذكريات في أفق حياتي الآن و أنا أحكي لك تفاصيلها. وها قد رأيت يا هشام، أصبحت هذه الفتاة هي زوجتي، علمت أن الله ادخر لي الأفضل بعد أن عاشرتها ثلاثين عاما ما أغضبتني قط، ها هي قد رحلت منذ خمس سنوات و أنا أعيش على ذكراها وتظل حكمته سبحانه يا بني في قوله «عسى أن تكرهوا وعسى أن تحبوا، وقد أدركت معنى هذه المقولة «رُب خير لم تنله، كان شرا لو أتاك»، فلا تحزن يا بُني إن الله يُدبر الأمر.

•••

محاضرة الحياة

كانت اليوم المحاضرة الأخيرة هذا العام لنا في قسم التاريخ كلية الآداب، توقعنا جميعاً أن تدور المحاضرة حول أهم النقاط أو العناوين الرئيسية التي يدور حولها الاختبار النهائي ولكن د. أحمد، أستاذ المادة، عرض علينا نصا تاريخيا تحدث عن الملكة كليوباترا. كان النص صحيحا من الناحية التاريخية، يحمل حقائق هامة حول تلك الحقبة الزمنية وعن الملكة كليوباترا وعصرها وحقائق تاريخية لا يمكن إغفالها ولكن النص به خطأ لغوي واحد.

طالبنا المعلم بالتعليق على هذا النص التاريخي، كانت التعليقات صادمة بالنسبة لي أما بالنسبة للمعلم فكانت متوقعة وهذا ما أيقنت به لأنه كان يبتسم، صح ظني فكان وراء النص شيء يعنيه. كان هناك ثلاثة أو أربعة تعليقات وإشادات بالنص وقامت بتحليل الوقائع التاريخية التي تضمنها، كان هناك نفس العدد تقريبا من التعليقات التي أشادت بسلاسة سرد والأحداث المترابطة بطريقة سلسة. حتى هذه النقطة وأنا أتفق تماما مع زملائي ولكن الصادم أن أضعاف أضعاف هذا العدد أشاروا إلى الخطأ اللغوي وكادت التعليقات تصل لإدانة بالغة لهذا الخطأ. وقف المعلم هادئا وعلق قائلا «من المؤكد أنكم توقعتم أن تدور المحاضرة حول أحد الأسئلة المتعلقة باختبار مادتنا ولكن رأيت أن أبدأ المحاضرة باختبار حياتي ثم ننتقل إلى منهجنا لكي نتناوله. لقد

مررت بهذا الاختبار كثيرا من قبل، عرضت عليكم الآن نصا تاريخيا صحيحا عدا خطأ لغوي واحد، كانت غالبية التعليقات تدور حول الخطأ اللغوي وكأن النص ليس به شيء صحيح نتكلم عنه، لم تجذبكم الايجابيات ولكن جذبتكم السلبيات وعلقتم عليها. هذه هي الحياة يا أبنائي الأعزاء، الحياة التي يركز الناس فيها على الأخطاء ولا يلقون بالا إلى المميزات، يركزون على أخطائك ويتناسون انجازاتك ويتغافلون عنها، كما فعلتم أنتم مع النص، نظرتم، إلا قليل منكم، إلى الخطأ اللغوي وشغلكم عن الاستفادة بالمعلومات الواردة في النص. أنتم مثل هذا النص، سينظر الناس إلى أخطائكم ويعلقون عليها ويتغافلون عن مزاياكم ونجاحاتكم، لن يلتفت الناس إلى ما تفعلونه من صواب ولو فعلتموه ألف مرة وسوف يركزون على أخطائكم وهفواتكم ولو صدرت عنكم مرة. ستخرجون خارج أسوار الجامعة وتجدون ألوانا وألوانا من الناس فلا تشعروا بالإحباط من كثرة الانتقاد، لا تخشوا الخطأ فلن تتعلموا إلا إذا أخطأتم فالناس لن ترى منكم غير الأخطاء والعثرات بينما ما تفعلونه من صواب لن يشغلهم إلا من رحم ربي.

لا تكترثوا لمن ينتقد ليهدم وتقبلوا من ينتقد ليبني ويصلح، هيا الآن لنعد إلى منهجنا بعد أن تطرقنا سريعا إلى لمحة سريعة من لمحات الحياة.

وكانت هذه المحاضرة حقا محاضرة الحياة بالنسبة لنا، قبل أن نقابل الحياة خارج أسوار الجامعة.

•••

نجية

ارتفعت الزغاريد في منزل الجيران، أسرعت إلى أمي لكي أعرف السبب فلا يخفى شيء عليها حفظها الله. أخبرتني أن جارتنا نجية عادت لتوها من أداء فريضة الحج، قلت لها «ما شاء الله» لقد سمعت أنها كانت تتمنى ذلك ولطالما طلبت منك أن تدعي لها أن يلبي الله طلبها وتستطيع أن تحج بيت الله. قالت أمي «حقا يا ابنتي، كانت تتمنى ذلك وتدعو الله أن يجبر كسرها». أصابتني الدهشة وقلت «وهل كانت تعاني في حياتها؟ فأنا لا أعرف عنها غير أنها طُلقت من زوجها الأول وعادت إلى شارعنا في بيت أبيها ثم تزوجت مرة أخرى بعد فترة قصيرة من رجل ميسور الحال» قالت أمي بعد أن تبسمت «هذا ما يراه الناس، ربما قالوا إنها محظوظة أيضا ولكن كما يقول المثل «اللي ميعرفش يقول عدس». أردت أن أعرف الكثير ولكن أمي كانت مشغولة وكذلك كنت أنا مشغولة في اختبارات نهاية العام.

مرت أيام قليلة وارتفعت الزغاريد مرة أخرى من بيت نجية، فأسرعت إلى أمي و أنا أنظر إليها نظرة ذات مغزى ففهمت ما أعنيه، فهل يوجد من هو أقرب لي من أمي. قالت «سوف أرضي شغفك و أقص عليكِ حكاية نجية وهي كما يقول المثل «اسم على مسمى» لأنها كانت تناجي ربها بكرة وعشية. كانت نجية متزوجة من رجل فقير الحال وفقير في أشياء كثيرة أيضا. دام زواجهما عشر سنوات دون إنجاب، صبرت هي

واحتسبت ورضيت بحالها وبقضاء الله بينما هو لم يصبر ولم يرضَ فتزوج عليها وأنجب بالفعل من إحدى قريباته ورزقه الله بأطفال من ذوي الاحتياجات الخاصة فضاق بهم وأخبر نجية أنه لن يستطيع الإنفاق على بيتين فطلقها وطردها من بيتها وعادت الي بيت أبيها لتعيش وحيدة فيه بعد أن رحل الأب والأم وتزوجت أخواتها وسافر أخوها للعمل بالخارج في إحدى الدول العربية. عاشت لشهور وحيدة تناجي ربها أن يجبر كسرها ويرزقها زيارة بيته، فجبر خاطرها وعوضها عما صبرت عليه ورضيت به فكان فضل الله عليها كبيرا، أرسل لها رجلا ميسور الحال توفيت زوجته الأولى ولم ينجب منها، كان راضيا بحاله يبحث عن زوجة تؤنس وحدته بعد وفاة زوجته. أرسله الله إليها لتكتمل فرحتهما معا، سألها عن طلباتها ومهرها فقالت مهري الحج، زيارة بيت الله الحرام فو افق وتم الزواج وحين أقبل موسم الحج أوفى بوعده وسافرا سويا لأداء الفريضة وزيارة بيت الله الحرام وبعد العودة من الحج شعرت ببعض الألم فذهبت للطبيب فأخبرها أنها حامل وتعجب لأنها لا تعلم فبررت ذلك بأنها كانت تشعر ببعض التغيرات ولكن لم يخطر ببالها أنه حمل. اكتملت فرحة نجية، جبر الله كسرها لأنها لجأت إليه وحده بعد أن تركها زوجها وكسر قلبها وفقدت الأمل في الانجاب ولكنها لم تفقد الأمل في الله الذي أعطاها كل شيء بعد أن فقدت كل شيء فهو رب كل شيء، خالق كل شيء، القادر على كل شيء.

•••

الحاجة سناء

انتقلت بعد زواجي إلى منطقة بعيدة غير التي نشأت فيها، لاحظت الفرق الكبير بين الحياة في المناطق الريفية والحياة في المدينة، جئت إلى الدنيا وعشت حياتي قبل الزواج بإحدى قرى محافظة الشرقية ثم انتقلت بعد الزواج للحياة في القاهرة. تزوجت نبيل بطريقة تقليدية، كان والده صديق والدي وكانا يرتبان لقاءات عديدة بين الأسرتين في المناسبات وفي غير المناسبات. نجحت خطة الصديقين وتقاربنا أنا ونبيل وتم الزواج. جمعتنا الخطط الأبوية كما جمعتنا مهنة الطب أيضا، تخصصت أنا في أمراض النساء بينما نبيل يكبرني بخمسة سنوات وتخصص في أمراض الصدر.

في صباح ذلك اليوم، كنت أتحدث مع نبيل عن الفرق الشاسع الذي أشعر به بين حياة القرية وحياة المدينة وخاصة إذا كانت القاهرة وعلى الأخص المدينة الجديدة التي نقطنها. و افقني نبيل على ذلك وأخبرني أنه لولا عمله ورسالة الماجستير لفضّل الحياة في قريتنا بعيدا عن هذه الضوضاء والتلوث والفقر الاجتماعي الذي نشعر به. بينما كنا نتحدث إذ بطرقات على الباب، تأخر نبيل قليلا في ارتداء ملابسه فزادت الطرقات، أسرع نبيل ونظر من العين السحرية ثم فتح الباب فإذا هو الأستاذ سليم، أحد أبناء جارتنا العزيزة صاحبة السبعين خريفا، الحاجة سناء. قبل أن نتطرق إلى ما حدث في ذلك اليوم، سوف أعدد لكم صفات

جارتي العزيزة، كانت تستيقظ الحاجة سناء في تمام السادسة صباحا، ترفع صوت الراديو على إذاعة القرآن الكريم ثم تحول مؤشر الراديو إلى إذاعة البرنامج العام في تمام الساعة السابعة والنصف. بالطبع يشكو الجيران من أفعالها تلك ولكن لا فائدة من الحديث معها فتقبلوا الوضع وأصبحت عاداتها الصباحية مألوفة لدينا جميعا. قرب المساء يتصاعد صوت «الست» أم كلثوم أو عبد الوهاب من جهاز الراديو أو الكاسيت وقبل الثامنة تغلق كافة الأنوار عدا ضوء خافت وصوت إذاعة القرآن الكريم الذي تعتبره ونيسا لها حتى تغادر عالمنا إلى عالم الأحلام. كانت تعيش وحيدة، تعتمد على نفسها وعلى زوجة البواب في طلباتها وطعامها، ونادرا ما نرى أيا من أبنائها.

نعود إلى ذلك اليوم، استقبلنا سليم الذي طلب على الفور من نبيل أن يصحبه على الفور لشقة والدته الحاجة سناء لأنها لا تتحرك ولا تتكلم. كان القلق متمكنا من سليم وأخبرنا أنها اتصلت به ثم سعلت و انقطع الصوت. هرعنا جميعا إلى شقة الحاجة سناء وقام زوجي بالكشف عليها ولاحظت علامات التعجب عليه ثم نظر إلي وطلب أن أجري الكشف عليها ثم اقترب مني وقال هامسا «كل شيء مضبوط، النبض ودقات القلب والضغط، كل شيء في أفضل حال» طلبت من نبيل وسليم أن يغادرا الغرفة لأستطيع الكشف عليها بهدوء، زادت ملامح القلق على سليم وخرج مع نبيل.

اقتربت من جارتي العزيزة وهمست في أذنها «لقد غادرا الغرفة» كان استنتاجي صحيحا. فتحت السيدة عينيها وقالت «يعجبني ذكاؤك».

سألتها عن سبب ادعائها المرض فقالت إن أولادها تركوها وحيدة ولا يزورها أحد وهي تشعر بحزن شديد وربما حدث لها مكروه بالفعل نتيجة وحدتها وحزنها، طلبت أيضا أن أُعظّم من أمر مرضها وأطالب أبناءها أن يحضروا لها أحفادها لأنها تشعر بدنو أجلها. فعلت ما طلبت وكان نبيل ملتزما الصمت لما فهم أن هناك شيئا يدبر، بينما ظهر الفزع على سليم و اتصل بإخوته وحضروا جميعا مع أبنائهم. استمرت السيدة في التظاهر بالمرض حتى حضر أولادها جميعا وأحفادها وكان لقاء جميلا، أحسست أن جارتي في قمة سعادتها. تركناها أنا ونبيل وعدنا للمنزل وأخبرت نبيل بما فعلته السيدة فابتسم وأشفق عليها كما فعلت أنا.

عدت إليها في المساء فشكرتني لأنني ساعدتها في تحقيق هدف سعت إليه وهو أن تجمع أبناءها وأحفادها حولها. أخبرتني أن أطلب من سليم أن يتصل بها يوميا ولا يتأخر عن زيارتها لاحتمال موتها في أي وقت. أبدت سعادتها وقالت «إنه أسعد يوم في حياتي منذ أن رحلوا عني وتركوني وحيدة لأنني شعرت باهتمامهم، ولو بيدي لفعلت ذلك ألف مرة لأرى نظرات الاهتمام التي رأيتها في عيون أبنائي وأحفادي. كان أبنائي يفعلون ذلك صغارا، يدعون المرض لأجلس بجوارهم وأحكي لهم الحكايات، احتاجوا صغارا للاهتمام ونحتاج أيضا كبارا لهذا الاهتمام».

•••

السائق

ركبت سيارة تاكسي ذات يوم وكانت سيارتي قد تعطلت فجأة. كنت شاردا طوال الوقت، أخبرت السائق بوجهتي وشردت أسترجع تفاصيل ما حدث. نظر السائق لي وقال «رغم أنني لا أحب التطفل ولكن صمتك يدل على هم كبير تحمله»، ابتسمت ولم أرد فأكمل قائلا «أبلغ من العمر خمسة وستون عاما، قضيت أغلب عمري في الشارع، تعلمت ما تعلمت، وفي كل يوم أتعلم جديدا، خَلُصت في النهاية إلى أن الله يعطيك رصيدا من الستر ويترك لك حرية التصرف فيه فإن حافظت عليه أصبحت مستورا في الدنيا وإن فرطت فيه فلا تلومن إلا نفسك، فإن سترك الله فلا تفضح نفسك، تعلمت أيضا أن الله أمرنا بالتوكل عليه بعد الأخذ بالأسباب، ولو كان التوكل وحده كافيا لما قال لمريم «وهزي إليك بجذع النخلة» وهو القادر سبحانه على أن ينزل عليها رطبا جنيا دون أن تلمس أي شيء.»

تعجبت من هذه النصائح وقلت له «وكيف عرفت أنني أحتاج إلى إحدى هذه النصائح؟» فقال «يا ولدي أغلب المشكلات إما هم يكسر قلبك بين قسوة الآخرين أو من قسوتك على نفسك بتهور صنعته بيديك واستنفذت رصيد ستر الله عليك. أو هم تسببه مشكلة تقع فيها ولا تجد حلا وحلك في الأخذ بالأسباب والتوكل على الله».

عجز لساني عن سرد مشكلتي فقال «و أنا في بداية حياتي كنت أحب

السير بسرعات كبيرة جدا في الطرقات المفتوحة والمرور بين السيارات وتجاوزها بمرونة لأنال إعجاب نفسي أولا أو إعجاب الآخرين حتى جلس أحد الركاب بجانبي ذات يوم فقال «لا تعتقد أن ما تفعله وتنجو منه بسبب مهارتك ولكن ذلك بسبب رصيد من الستر لديك إذا استنفذته بأخطائك المتكررة والمتعمدة فلا تلومن إلا نفسك، لم أعر كلامه أي اهتمام حتى نفذ رصيد الستر بأخطائي المتكررة وأصبحت الحياة بالنسبة لي كالمعلم الذي يلطم تلاميذه لطمة بعد أخرى لكي يتعلموا، حتى سئمت الحياة كلها حادث كبير خرجت منه وقد فقدت سيارتي وأعاني من كسور استمرت لأكثر من عام ومعيشة تحت خط الفقر تقريبا. تذكرت كلمات الرجل وأن رصيد الستر قد نفذ. اتجهت إلى الله بالدعاء والتضرع وبدأت في الأخذ بالأسباب بعد نصيحة خالي رحمه الله وتوكلت على الله وبدأت حياتي من جديد ذات يوم بينما أجول الشوارع بسيارتي التي أعمل عليها ولم أكن قد استطعت شراء سيارة جديدة. رأيت رجلا توقف بسيارته في إحدى إشارات المرور ونزل منها سريعا لينقذ قطة تقف وسط السيارات وتستغيث بطريقتها. لقد خاف عليها من الموت، أخذها ووضعها فوق الرصيف بجانب إحدى الأشجار الصغيرة التي كانت تتوسط الرصيف ثم أسرع إلى السيارة فمد له ابنه يديه بقطع من اللانشون تقريبا ووضعها للقطة ثم أسرع وأحضر لها ماء في غطاء عبوة معطر السيارة وعاد إلى سيارته و انصرف. تعجبت من رحمته بالحيوان ثم أشار إلي أحد المارة وركب معي وأخبرني بوجهته فتلقى اتصالا وكان يرد ببضع كلمات ويبتسم وهو يتحدث «حاضر،

معلش يا حبيبتي، ربنا ييسر» كرر تلك الكلمات طوال المكالمة ولما أنهاها ابتسمت إليه فقال «زوجتي تشكو أنها تجلس بمفردها بالمنزل وتطلب بعض الأشياء، كان من الممكن أن ألومها على ذلك، على اتصالها كثيرا بي وطلبها أشياء تافهة من وجهة نظري ولكنها عظيمة من وجهة نظرها، ولم أتضرر يوما من مكالماتها فإن لم تحدثني فمع من تتكلم. أساءت كثيرا، تعصبت كثيرا، ولكن إن لم أتحملها فمن يتحملها». وصلنا إلى وجهته فأعطاني الأجرة وزيادة وابتسم وشكرني وانصرف». أضاف الرجل «أرأيت يا ولدي، رحمة تمثلت في صورتين، رزق أرسله الله إلى القطة، أرسل لها من ينقذها ومن يعطيها الطعام. رزق أرسله الله إلى الزوجة، أرسل لها زوجا رحيما يعلم عيوبها ويتحملها بحُب ورفق، هذا كله رزق».

بدأت أفكر كيف أن مشكلتي تافهة بالنسبة لهذه الأمثلة، فلم أتعرض للموت مثل القطة ولم أعاني الجوع مثلها ومثل السائق بعد حادثته، لم أتعرض لحادث مثله. فما أهون أن أتعرض لضائقة مالية وخسارة في تجارتي من مصائب كهذه. وصلت إلى وجهتي فصافحت السائق وأعطيته أجرته فهمس إلي بجملة مازال صداها يتردد في أذني حتى الآن «المحنة هي منحة، نفس الحروف وتختلف في طريقة كتابتها».

•••

بداية جديدة

كانت حالتي سيئة للغاية ومع ذلك كنت أشعر بالسعادة البالغة لأنني أنهيت كابوسا كنت أعيشه بكل تفاصيله. سأروي لكم تفاصيل الكابوس؛ تعرفت على من كان «خطيبي» في أحد اللقاءات الأسرية، جرفتني المشاعر الزائفة تجاهه، خدعني بمظهره وثقافته المصطنعة بأناقته الخارجية ووسامته الزائدة. بعد أن أفقت من هذا الكابوس اتضح لي أن ثقافته المصطنعة تلك خدعتني بسبب تفاهتي وسطحيتي التي كانت. كنت أراه وسيما لأنه أوقعني تحت سحر كلماته فكنت أرى صورته من خلف هذا القناع. حدثت خلافات كثيرة بيننا. كان يرتفع بعصبيته إلى عنان السماء ويثور ثم يهدأ ويتوسل ويعتذر، لكن في المرة الأخيرة قررت ألا أسامح. وضعت حدا لهذا الكابوس. تلاشى هذا الكابوس من حياتي للأبد. كانت نظرتي للحياة مقرونة به، أرى حياتي من منظوره هو، بدونه كنت أرى نفسي وحيدة رغم ما مر علي ومن كان حولي من الأصدقاء والأقارب، إلى أن قررت أن أتخلص من تلك الذكريات الموجعة ومن طيفه الراسخ في أعماقي.

خرجت إلى الحياة من ذلك البئر السحيق الذي كنت أعيش فيه ور أيت الحياة بمنظور جميل مختلف. بدأت أطرق كل أبواب السعادة، أقتني الأزهار الجميلة التي أعشقها، تعرفت على أناس جدد، بدأت أعرف طريقي للضحكات الصافية والابتسامات اللطيفة أدركت أن ما من

شخص يقدر أن يمنحك السعادة سواك. بحثت عن الأمان فوجدته في نفسي ولذلك شعرت بالامتنان، بحثت عن الثقة فوجدتها في ذاتي.
في ذلك اليوم أمسكت القلادة التي أهداها لي ذلك الماضي. كنت أنظر إليها، أحتفظ بها لأتذكر تلك الحياة الزائفة التي كنت أعيش فيها والتي كانت دافعا لي لأغير من نفسي و أقبل على الحياة. بينما أمسكها بين يدي و أتفحصها و أنا أبتسم وكنت جالسة في أحد الأندية الاجتماعية الصغيرة بجوار المنزل رأيت طيفا يمر أمامي رفعت رأسي لأرى ذلك الصغير الذي يقترب مني. «ما اسمك يا صغيري؟»، قلتها والابتسامة تزين وجهي ورد علي بنفس الابتسامة البريئة «اسمي علي»، تمنيت للحظة أن أحيطه بذراعي ولكنه أسرع حيث والدته تجلس. هممت أن أذهب إلى والدته لأتعرف عليها فربما سعدت بحديث إلى ذلك اللطيف البريء، ولكن أوقفتني زهرة جميلة قدمتها يد رقيقة إلي، نظرت لصاحبها فلم أر غير ابتسامة رقيقة كانت بداية جديدة لحياة أجمل مع قلب ينبض بالحب وعقل يفكر فيمن يحب.

•••

نُشبهني

التحقت بكلية التجارة رغم ميولي العلمية والتي جعلتني أختار القسم العلمي في الثانوية العامة ولكن لا أعرف ماذا حدث ووجدت نفسي قد حصلت على مجموع درجات لا يؤهلني إلا لكلية التجارة. رضيت بالنصيب والقدر كما نصحني أبي وتوكلت على الله وشققت طريقي في كلية التجارة. كانت الدراسة بها أكثر سهولة بالنسبة لي من الثانوية العامة وموادها رغم أنى لاحظت أن بعض زملائي عانوا كثيرا من بعض المواد، ولكن أظن السبب أنني تعودت منذ صغري على المذاكرة المستمرة وقدرتي على الاستيعاب جيدة لحد ما.

مرت السنوات سريعا ووجدت نفسي في السنة النهائية وبدأ هاجس فرصة العمل الجيدة يراودني. كنت أفكر ماذا سوف أعمل وكيف سأجد فرصة عمل وسط هذا الحشد الغفير من الخريجين، هل ستستوعب الشركات والبنوك كل هذه الأعداد من خريجي التجارة. هل مكاتب المحاسبة تحتاج إلى عدد كبير كهذا من المحاسبين. ظلت الأسئلة تطرح نفسها في عقلي ولا أجد ردا بل كنت أصاب بألم شديد في رأسي وينتهي ذلك التفكير في غد بكلمة «سيبها على الله».

في السنة النهائية كان الموضوع يلح علي كثيرا حتى أنني كنت أذهب إلى إحدى الكافيتريات داخل الجامعة ولكنها بعيدة عن كُليتي لأجلس وحيدا أفكر في كيفية التطوير من مهاراتي واكتساب مهارات أخرى لأصبح

متميزا بشيء عند التقدم للعمل خاصة و أنا لا أملك «الواسطة» أو المحسوبية وبالطبع لن يستمر أبي في تحمل نفقتي بعد أن خط شاربي وقويت عضلاتي وأصبحت «شحطا» كما كانت تداعبني أمي.

وسط هذا الشرود والتفكير العميق في ملكوت الله شعرت بيد رقيقة حطت على كتفي وصوت يغرد بهمهمة رقيقة «احم احم»، التفت سريعا فوجدتها «شروق» تلك العصفورة أقصد «البنوتة» الرقيقة التي تملأ الدنيا ألحانا حين تغرد. زميلتي التي أتحاشى رقتها الزائدة، نطقت سريعا و أنا أشير إلى المقعد

- أهلا شروق، تفضلي

استمرت ابتسامتها تُزين وجهها وجلست على المقعد المقابل أمام المنضدة فسألتها

- تشربي إيه؟

اعتذرت برقة ثم بررت تواجدها، دون أن أسالها، بالطبع بأنها كانت تشتري بعض الأشياء مع صديقتها ثم دخلت من باب الجامعة الموجود في آخر الجامعة. علمت بفراستي بالطبع أنها تشعر بالحرج لأنها تطفلت علي في خلوتي، ولكنها لا تعلم كم كنت أتمنى أن أفوز ببضع ثوان معها بعيدا عن صديقاتها ولكن منعني الخجل الذي حاولت مرارا وتكرارا التغلب عليه من طلب هذا الأمر منها.

فاجأتني بسؤال أزال عقدة لساني وقالت:

- لقيتك قاعد لواحدك وكل الكافيتريا «كوبلز»، بتعمل إيه يا شقي؟ مستني النص التاني؟؟

انتهزت الفرصة التي سنحت الي:

- لأ، نُصي التاني اللي بتمناه متوقعتش إنه يفاجئني بدون موعد ويسعد قلبي برؤيته.

ظهرت ألوان الطيف جميعها أمامي وعلى وجهي أيضا من جرأة ما قلت ولكني تداركت الموقف قبل أن تطير عصفورتي من شدة الخجل

- في الحقيقة أنا بفكر إزاي لما أتخرج بعد كام شهر هلاقي شغل إيه وإزاي؟ كلها كام شهر وهشيل هم مسؤولية نفسي على الأقل وبعدها بشوية هشيل مسؤولية حلم كان جوايا ومش قادر أحلمه حتى في اليقظة عشان هم الشغل.

ابتسمت لأنها أدركت ما أعني وقالت:

- جميل إنك تفكر في بكره، وده معناه إنه يُعتمد عليك

راق لي كلامها ورأيها بي

- إيه الكلام الجامد ده؟

أضافت وهي تطير في جلستها وتطير كلماتها لتخترق عقلي كما اخترقت نظراتها قلبي:

- آه، بس مش تفكر بس، لازم تحاول تلاقي حلول، فكر بره الصندوق

- إزاي إحنا خريجي تجارة بالآلاف؟

ما زالت ابتسامتها تزين قسماتها وقالت:

- اشتغل أي حاجة تقابلك وخد كورسات وغير مسارك، كورسات كمبيوتر مثلا، كورسات لغات ودور على شغل في شركات، كمل في دراسة المحاسبة وخد شهادات دولية، خد دبلومة تربوية واشتغل مدرس.

أدهشتني كلماتها

- إيه ده، أنتي فكرتي في الموضوع ده قبل كده

- أكيد يعني، بس الأهم إننا نفكر في الامتحان وبعد كده نفكر إيه المناسب لينا عشان نتخصص فيه، متقلقش هنفكر سوا، المهم الامتحان

- تخيلي أول مرة مقلقش فعلا من الموضوع ده، يمكن عشان هنفكر فيه سوى بعد كده على طول

- احم احم وبعدين، يلا المحاضرة هتفوتنا وبطل تبص لي كده

وقفت ونظرت إليها وقلت فجأة:

جميل أوي إن الواحد يلاقي حد يشبهه والأجمل يكون شبهه وبيكمله.

•••

كله يفرح

انتهينا أنا وصديقي أحمد في ذلك اليوم من العمل وخرجنا سويا نتناقش في بعض أمور العمل وترتيبات الزيارة القادمة لنا مع إحدى الجمعيات الخيرية إلى إحدى دور الأيتام. أبلغني أحمد أنها دار لرعاية الأيتام وكبار السن أيضا، صمتَ قليلا ونحن نعبر الشارع ثم قال «وكأن كلهم أيتام صُغيرين وكبار، اللي اتولد يتيم يحتاج اللي يرعاه واللي اتيتم من أسرته في كبره يحتاج اللي يرعاه وسبحان الله».

شعرت بالمرارة في فمي، مرارة الكلمات التي نطقها أحمد، كان منظورا مختلفا للأيتام الصغار والأيتام الكبار، قد يكون للكبار عائلة وأولاد ولكنهم تخلصوا منهم كما تخلص بعض الآباء والأمهات من أبنائهم وأصبحوا أيتاما. لاحظ أحمد تأثري بكلماته فاعتذر إن كانت كلماته قد ضايقتني أو سببت لي ألما ولكن أبديت احترامي لوجهة نظره معللا أن الحقيقة دائما مرة.

بينما نحن على هذا الحال إذ بأحمد يتوقف فجأة أمام أحد الباعة الجائلين وكان يبيع الذرة. دار هذا الحديث بين أحمد والبائع:

ابتسم أحمد وقال للرجل بعد أن تبادلا التحية:

- عامل إيه يا عم سيد؟

رد الرجل بابتسامة جميلة أظهرت أسنانه الصفراء المتباعدة قليلا ثم لثم باطن يده وظهرها

- الحمد لله يا أستاذ أحمد، كله خير من عند الله

ابتسم أحمد وقال:

- ربنا يرضيك كمان وكمان يا راجل يا طيب، عندك درة طازه؟ حلوة كده زي كلامك الحلو؟

ضحك الرجل ضحكة خفيفة وقال:

- ربنا يسعدك يا بيه، عندي درة تستاهل بقك

أخرج أحمد بعض النقود تتجاوز بكثير ثمن الذرة مهما كان سعرها وقال:

- طب إديني خمس كيزان ذرة وسويهم كويس

ونحن ننتظر عم سيد وهو يشوي الذرة، نظر أحمد إلي وقال:

- متعود كل يومين ثلاثة أعدي على عم سيد آخد كم كوز ذرة في الشتاء ده يدفينا وفي الصيف يا إما ترمس أو تين، حسب اللي يبيعه.

ابتسمت ولم أرد لأنني تفاجأت بكلماته ولكني نسيت لأن أحمد عاجلني بسؤاله عن استعدادي لزيارة دار الأيتام والوقت المناسب فأخبرته بأنني مستعد في أي وقت للقيام بهذا الواجب الانساني. تحدثنا قليلا ثم انتهى عم سيد من شواء الذرة فوضع أحمد في يده النقود التي أعدها لذلك، فرح الرجل وغمرته السعادة.

بعد أن تركنا الرجل بمسافة كافية تذكرت سبب دهشتي من كلماته، ذلك السبب الذي نسيته، قلت لأحمد والدهشة تسيطر على كلماتي التي خرجت متدافعة:

- إنت أصلا مبتاكلش الذرة؟ أنا فاكر إني حاولت أعزم عليك بيها قبل

كده لكنك رفضت

ابتسم أحمد وقال وقد أضاءت الابتسامة وجهه:

- أنا عملت كده عشان أفرح الراجل، خد إنت واحد واللي نقابله يبقى من نصيبه وأهو كله يفرح.

•••

أحب القهوة

جلست على أحد المقاهي وطلبت فنجانا من القهوة، اعتدت على ذلك نتيجة عملي الذي أجبرني على التنقل بين الحواري والأزقة، لا تتحير كثيرا فأنا أعمل مندوبا للمبيعات. رغم أنني تخطيت الخامسة والثلاثين إلا أنني لا أجد نفسي إلا في هذه المهنة. لا تذهب بتفكيرك بعيدا فلست ممن تراهم في المواصلات العامة ممن تطربك أصواتهم بين «الثلاثة بعشرة يا بيه» أو «آخر واحدة معانا مين قال هات». أنا عملي هو مندوب مبيعات متخصص في المجال الطبي وخاصة في مجال المستلزمات الطبية، بل لو أردت تحديدا أكثر من ذلك فربما تعجبك المهنة، فأنا متخصص في بيع مستلزمات معامل التحاليل الطبية. وظيفتي الأساسية هي أمين مخزن في إحدى الشركات الطبية و اتخذت من مهنة المندوب حلا في المقام الأول لمساعدتي على تجاوز الضائقة المالية التي لازمتني بعد الزواج وقدوم الغالي حسام إلى الحياة. في البداية، كنت أراها مهنة ثقيلة ومرهقة ولكن بعد فترة أحببتها جدا ور أيتها من زاوية مختلفة، فكل يوم أرى أناسا جددا و أكوّن صداقات جديدة وعلاقات طيبة مع الأطباء وأصحاب الشركات بل أصبحت أحقق أعلى المبيعات في الشركة، وهي نفس الشركة التي أعمل بها كأمين مخزن، حتى ممن هم أصغر مني سنا و أكثر جهدا. كنت أجلس بين الحين والآخر لأستريح بعض الوقت و أتناول فنجان القهوة المفضل لي بين زياراتي للعملاء وهكذا تعودت لأريح نفسي

فهناك شيء آخر أجبرني أن أفعل هذا وهي الآلام التي أشعر بها في قدمي من طول السير أو صعود وهبوط سلم طويل.

بينما أنا انتظر القهوة إذ بصبي بشوش الوجه يحمل قهوتي وهي تتراقص فوق صينية التقديم و اقترب مني ثم قدمها لي مع ابتسامة جميلة. ليست ابتسامته فقط هي الجميلة ولكن رائحة القهوة الرائعة وهي تنتشر وتتخلل رأسي. يقولون إن القهوة لا تشرب إلا رويدا رويدا ولكني لم أستطع أن أفعل ذلك فشربتها سريعا ثم طلبت فنجانا آخر. تعجب الصبي ولكنه امتثل لطلبي وجاء بالثاني ويديه ترقص بالفنجان وشفتيه تتراقص الابتسامة عليهما. عندما سألته عن سر لذتها، أجابني بابتسامته:

- أبي يحب القهوة وهو من يصنعها وكذلك أنا أحبها جدا

تعجبت من رده وقلت:

- وهل هذا الحب للقهوة هو سر لذتها؟

ففاجأني بما أعرفه وأعمل به و أتخذه منهجا في حياتي

«وهل يمكن أن أجيد شيئا إلا إذا أحببته؟»

•••

محاضرة لا تُنسى

دخل أحد المحاضرين ليلقى علينا محاضرة في مادة القانون في السنة النهائية في كلية الحقوق. كان المدرج ممتلئا عن آخره لأننا نتوقع أن يفصح أو يلمح بعض الأساتذة عن ملامح الاختبار النهائي أو حتى كيفيته. كان المدرج يضج بالهمهمات العالية ولكن صمت الجميع عندما دخل الأستاذ

كانت زميلتي مي تمسك بمسجل الصوت وبالطبع كان ذلك قبل ظهور الهاتف المحمول وما به من امكانيات تسجيل الصوت والصورة. كانت مي أيضا تجهز قلمها ودفترها لكتابة ما سيقوله الأستاذ فنحن نعتمد عليها. بالطبع سأوضح لك إلى ماذا تشير نحن هذه التي ذكرتها، نحن شلة ميم كما أطلقنا على أنفسنا، ذلك لأننا تعرفنا على بعضنا البعض في «سكشن» جمع كل من يبدأ اسمه بحرف الميم فهذه مي ومها ومنة ومهاب ومحمد ومحمود ومصطفى، تتكرر الأسماء كثيرا ولكن لا داعي للتكرار فنحن بصدد ما تم في المحاضرة.

صمت الجميع عندما كتب الأستاذ كلمة «القانون» أمامه وظهرت لنا جلية كبيرة من خلال البروجيكتور أو الداتا شو. أمسك الميكروفون وسأل «ماذا تعني هذه الكلمة؟» بدأ الكثيرون يرفعون أيديهم وسمح لهم الأستاذ لكي يسمع منهم الاجابة التي كانت واضحة لنا وتعريفه واضح ونعرفه جميعا. ثم سأل سؤالا آخر وقال «أهنئكم على معرفة

تعريف القانون ولكن لماذا شرعت القوانين؟» كانت هناك اجابات كثيرة ولكن الأستاذ أثنى على أحدهم الذي قال إن القوانين قد شرعت لكي تطبق بين الناس فيسود العدل وتتحقق العدالة.

انتقل المدرس إلى نقطة اخرى وكأنه و افق على ما قيل. ألقى علينا سؤالا آخر وقال «من منكم سيعمل بمهنة المحاماة؟» كان السؤال واضحا ومفاجئا وغير متوقع فزادت همهمات الطلاب وقال عدد كبير منهم في صوت واحد «بالتأكيد كلنا يا دكتور». قال الأستاذ «ولماذا كلكم، ألا يريد أحدكم أن يصبح وكيل نيابة أو قاضيا» فقال بعض منهم أيضا «نحن نريد»

أشار الأستاذ إلى أحد الطلاب فقام وقال له الأستاذ «إن مظهرك لا يعجبني، اخرج من محاضرتي»، همهم الطلاب ونظروا لبعضهم البعض وإلى الطالب ولسان حالهم يقول إنه ظلم، هذا ظلم ولكن لم يجرؤ أن يتكلم أحد. امتثل الطالب لأمر الأستاذ وخرج من المحاضرة. ساد الصمت لبرهة ولكن فجأة ودون سابق انذاروجدت لساني يعلنها بصوت عال دون سابق انذار «هذا ظلم، هذا ظلم يا دكتور، كيف تعلمنا القانون وتظلم زميلنا؟». أدركت فداحة ما فعلت عندما نظر إلي كل زملائي وسمعت همهمة مي « إيه اللى عملته ده؟»، بينما غضب الأستاذ وقال بصوت مرتفع من خلال الميكروفون «كيف تجرؤ على ذلك، كيف تتحداني وتتهمني بالظلم؟» انتفضت من داخلي فقد استفزتني كلماته فقلت «كيف سنطبق القانون ونحن نسكت عن الحق؟». لبرهة من الوقت سيطرت صورة رقم صفر التي ستزين لوحة النتيجة أمام اسمي

فيها. تصورت خيبة الأمل في أعين أهلي و أنا أزف إليهم خبر الرسوب في تلك المادة التي يدرسها الأستاذ الذي أثرت غضبه لتوي لأنني نطقت بالحق وأعربت عن استيائي من وقوع الظلم على زميلي ودفاعي عن الحق. أفقت على صوت الأستاذ يقول «حيوا زميلكم فهو الوحيد الذي طبق القانون بدفاعه عن الحق، هذا أهم درس يجب أن تتعلموه في كلية الحقوق وهو الحق والدفاع عنه، لا فائدة للقانون إذا لم يطبق، لا فائدة للقانون إن لم تملكوا الشجاعة لنصرة الحق». ضج المدرج بالتصفيق الحاد لبضع ثوان ثم التقط الأستاذ متعلقاته وقال قبل أن يخرج قال «أما بالنسبة لزميلكم الذي ظننتم أنني ظلمته فكان اتفاقا بيني وبينه لتتعلموا الدرس». ارتفع التصفيق مرة أخرى تحية لهذا الرجل ثم انصرف.

•••

أميرة حياتي

حرماني من امتلاك جهاز كمبيوتر بسبب الظروف المادية السيئة التي عشتها و أنا صغير مع أسرتي كان سببا في لهفتي أن اقتنص كل دقيقة أمام جهاز الكمبيوتر في أثناء حصولي على دورة تدريبية مجانية تتبع وزارة الاتصالات. كان ذلك بعد تخرجي من كلية الآداب. وجدت إعلان المنحة في الجرائد وكان هذا اتجاها عاما في الوزارة وهو توفير منح في الكمبيوتر للشباب والتي عرفت وقتئذ بمنحة إي سي دي إل. اعتدت على دخول قاعة الدراسة، في الشركة التي كانت تنفذ المنحة، قبل بداية الدورة التدريبية لاقتنص أكبر دقائق ممكنة أمام جهاز الكمبيوتر قبل دخول المدرب، وكذلك أنتظر بعد انتهاء الدورة لأقوم بتطبيق ما تم دراسته.
أدى ذلك الحرص على الاستفادة من الدورة التدريبية بأقصى درجة ممكنة إلى أن أصبحت أفضل طالب بهذه الدورة التدريبية. كان المدرب يشجعني على ذلك ويجيب على كل أسئلتي بل ويتطرق إلى المزيد من المعلومات إذا كان سؤالي يتطلب ذلك. أصبحت أنفذ كل الخطوات العملية للدورة التدريبية بينما واجه زملائي كثيرا من المشكلات لمتابعة الدورة بسبب عدم الاهتمام.
كنت ألاحظ الجميع في صمت، تدور عيني بينهم ولسان حالي يقول «آه لو تعلمون أنني أشتاق لكل ثانية أمام هذا الجهاز» كان جهازي هو صديقي، أتعامل بود مع زملائي ثم أعود إلى صديقي المخلص. كانت أميرة زميلتي

في المنحة تشبه إحدى الممثلات، كانت تعي ذلك وتعلم أنها جميلة وأن الجميع يلتف حولها لهذا السبب، الجمال، و أيضا ذلك الشبه الذي يربطها بممثلة شهيرة والذي جعل وجهها مألوفا لدى من يراها. كانت مثل الزهرة التي تلتف حولها الدبابير لتنال من رحيقها ولكنها كانت تخرج الأشواك إذا تعرضت لأي هجوم لا ترغب فيه.

في أحد الأيام اقتربت ثم قالت:

- صباح الخير، ممكن تعرفني إزاي حركت الصورة اللي عرضتها على المدرب امبارح

نظرت اليها مندهشا من اقتحامها لخلوتي مع صديقي العزيز وقلت بابتسامة رقيقة:

- صباح الخير، حاضر هعرفهالك، لكن الجزء ده مش مقرر علينا في كورس الباوربوينت، ده حاجة إضافية

أجابت بابتسامة:

- آه أنا عارفة بس حبيت أعرفها بس لو هتعبك مفيش مشكلة

أيقنت تمنعها الجميل المقصود فقلت على الفور لكيلا أضيع هذه الفرصة من يدي:

- لا أبدا مفيش تعب ولا حاجة، اتفضلي اقعدي عشان أشرحهالك

سحبت أحد الكراسي وجلست بجواري ثم قالت:

- قبل ما تبدأ، أنت اسمك إيه؟

أردت اختبار ردة فعلها:

- معقولة معاكي في الكورس من أسبوع ومتعرفيش اسمي!

ردت ببطء وقد تغيرت ملامحها:

- ذاكرتي ضعيفة، اعذرني

هنا أدركت أنني أسأت الرد فحاولت أن أرد لها كبريائها الذي نلت منه

- أكيد مش الذاكرة يا أميرة لكن من كثرة المعجبين اللي حواليكي

وقع كلامي عنها كما أردت وعاد وجهها يتورد بحمرته المعهودة وقالت:

- أنت واخد بالك مني بقى؟

ابتسمت ثم قلت لها لأقتنص نظرة أخرى كالتي سبقت:

- أنتي شايفاني أعمى لدرجة إني ما ألاحظش كل اللي بيحصل، أنا صحيح وشي في الجهاز على طول لكن القمر على طول ظاهر للبعيد زي القريب، لكن من اللحظة دي هقرب قوي.

هنا ظهرت حمرة أخرى على خدودها الوردية ولمعة أخرى في عينيها، لقد نلت منها فأرادت أن تغير الموضوع فقالت:

- أنت طبيعتك كده، ساكت مبتكلمش حد

أدركت رغبتها في الخروج من المأزق وتغيير الموضوع

- لأ أبدا، أنا بس مركز أوي في الكورس عشان أستفيد وكمان عشان مليش أصحاب هنا.

صمتت برهة وقالت:

- أنا كمان مليش أصحاب هنا

وهنا أعلنت دهشتي المصطنعة لأسالها عن هؤلاء الذين التفوا حولها منذ الوهلة الأولى:

- طب إزاي وكل دول حواليكي من أول يوم وشايفك إيزي معاهم

وبتعاملهم كأنكم اصحاب

ظهرت الدهشة عليها وقالت:

- إيزي دي حاجة حلوة ولا وحشة

أردت ألا أزعجها وأضفي على الحديث بعض المرح، و أنا أعلم أنها جميلة الروح ولا تدرك ما يدور بنفوس الآخرين فقلت و أنا أضحك:

- لا دي حاجة بالسكر

أجابت على الفور وهي تبتسم ببعض الدلال:

- إيه ده أنت بتعرف تقلش وتضحك كمان أهو، وكمان واخد بالك مني وعامل من بنها

وجدت الطريق ممهدا أمامي لاقتحام عالمها بطريقة مختلفة عن الآخرين:

- بصراحة أنتي جميلة وواضح إنك جدعة لكن طريقتك دي هتطمع الناس فيكي، كل واحد هيعملك صورة في خياله ويعاملك على أساسها و أنتي الخسر انة في النهاية. بس أنا حاسس إنك مأفورة جدا في الكورس ده في التعامل مع ناس متعرفيهاش

قالت وقد أصابتها الدهشة:

- أنت إزاي عرفت عني كل ده، أنا فعلا مأفورة جدا في الكورس ده ومكنتش كدة في الجامعة بس مش عارفه ليه

أيقنت أن وراء الابتسامة حزنا عميقا فقلت:

- أنتي بتعملي كده عشان بتدوري على الاهتمام من كل اللي حواليكي. أنتي حاسة إنك داخلة على مشكلة فبتحاولي تداري قلقك وخوفك واحتياجك للاهتمام بالأفورة اللي بتعملها دي

كانت ملامحها تؤكد أنها مقتنعة بما أقوله وقالت:

- طب أعمل إيه يا فيلسوفي؟

راقت لي كلماتها، لقد كسرت الحاجز بيننا وها هي مستعدة لتلقي النصيحة، لقد أصبت لُب مشكلتها:

- أنتي أكيد فاقدة الاهتمام جوا البيت، عشان كدة بتدوري عليه بره البيت

ابتسمت وقالت:

- أنت حكيم كمان يا حمزة، أنا فعلا محتاجة ماما الدكتورة المشغولة دايما عني، فاضية للمؤتمرات بره مصر وللمستشفى وللعيادة وللمناسبات ومش فاضية ليا، وبابا عنده شركة ومهتم بيها جدا وواخدة كل وقته. أنا عايشة ومش عايشة

علمت أنها بحاجة إلى قلب يسمعها ويشعر بألمها فقلت:

- كملي أنا بسمعك

أجابت على الفور بابتسامة:

- ياه من زمان أوي مسمعتش الكلمة دي حتى صحباتي بعدت عنهم بعد ما الكلية خلصت

أجبت بابتسامة تعني أنني أفهمهما وقلت:

- وعشان كده بتدوري على اي حد يسمعك ومش لاقية

أجابت ببعض التأكيد:

- تمام

فقلت وقد أصبحت مستعدة لسماع كلماتي وتصديقها:

- أنا هسمعك وهنصحك وهاخد بالي منك

شعرت بالفرحة قد اجتاحت قلبها وقسماتها وقالت:

- ماشي يا حكيم

- بس مبعرفش أغني

بنفس الابتسامة ردت:

- مش محتاجة حد يغنيلي أو يغني عليا، أنا محتاجة...

صمتت قليلا ثم أكملت:

- أنا محتاجة حد يسمعني وينصحني وياخد باله مني

فهتفت كالأطفال بعدما فهمت الرسالة:

- أنا، أنا، أنا هسمعك وهنصحك وهاخد بالي منك

ضحكت وقالت:

- بس ممكن ميو افقش يروح معاك

تعجبت من ذلك الرد وقلت:

- مين ده؟

أجابت سريعا:

- بالك اللي هتاخده

وهذا كان أول لقاء بيني وبين أميرة حياتي، بيني وبين زوجتي أميرة، من ذلك الحين و أنا أسمعها و أنصحها وأعيرها كل انتباهي، بل وأمنحها كل حياتي، كما منحتني زهرة عمرها وزهرتين رقيقتين هما هنا ومنة. أبتسم الآن بعد أن أنهيت قصتي وأشرب فنجان القهوة وهي تقرأ كلماتي أثناء كتابتها وتضحك وتضع رأسها على كتفي.

•••

نبيل بعد التعديل

التقى الدكتور فريد في معمله الخاص بصديقه الدكتور سليم. قابله بابتسامة ثم قال «هل حضرت للاطمئنان على اختراعي العظيم؟» ابتسم سليم وقال «بل أنا أثق بقدرتك على الابتكار ولكن هل حقا سيتمكن هذا الإنسان من التنفس تحت سطح الماء مثل الأسماك». ضحك فريد وأجابه مبتسما وهو يشير بيديه علامة على الثقة «بالتأكيد بذلت جهدا كبيرا وسوف ترى بنفسك». توجه فريد إلى أحد الأجهزة الكبيرة داخل غرفة زجاجية وكان هناك إنسان يرقد فوق سرير ومثبت عليه ببعض القيود الحديدية كي لا يستطيع الحركة وكان يبدو أنه فاقد الوعي. أزال فريد تلك الأجهزة التي كانت مثبتة فوق صدره وبعض الأجهزة الأخرى التي تشبه أجهزة المحاليل ثم حقنه بمادة كانت بجوار السرير. بدأ هذا الشخص يسترد وعيه، فتح عينيه تدريجيا كأنه يتعرض لضوء الشمس بعد نوم عميق. دار حوار بين هذا الشخص وبين فريد فهم منه سليم أنه يُدعى نبيل و أنه على علم بكل ما تم من تجارب و أنه يتعرض لتجربة علمية من الممكن أن تفقده حياته وربما أصبحت طريقه إلى العالمية. أيقن سليم بعد دقائق من المناقشات بين فريد ونبيل أن الأخير يحمل درجة علمية وذلك اتضح من فهمه وإدراكه لطبيعة التغيرات التي أجراها فريد على جهازه التنفسي بل كان سعيدا للغاية حينما أدرك أن العملية الأخيرة نجحت ويمكنه أن يخضع للاختبار العملي. تساءل سليم في نفسه:

«ما الذي دفع شخصا مثل نبيل على درجة علمية كما استنتج أن يكون محل تجارب علمية خطيرة كان من الممكن أن تودي بحياته أو أن تتسبب له في شقاء طيلة عمره، هل حب المغامرة ودخول التاريخ من أوسع أبو ابه وحب الشهرة. هل حب المال الذي سينعم به إذا نجحت التجربة أم الملل من الحياة وعدم الرغبة فيها هما ما دفعاه إلى الإقدام على مثل هذه المغامرة؟». عاد سليم إلى وعيه بعد لحظات الشرود التي فصلته عن الو اقع ولاحظ أن نبيل يتحرك من داخل الغرفة الزجاجية بعد أن ساعده فريد وخرج متوجها إلى حمام السباحة خارج الفيلا.

توجه فريد إلى سليم قائلا:

« الآن، ترى بنفسك الاختبار العملي لقدرات نبيل بعد التعديل، سوف يمكث نبيل تحت سطح الماء لمدة خمسة عشر دقيقة وسوف يتدرب تدريجيا على زيادة المدة لتصل إلى ساعتين، وإذا شعر بأي شيء سوف يخبرني به على الفور».

سأله سليم وهم يتحركون بالفعل تجاه حمام السباحة:

«هل أجريت اختبارات على فترات أقل من الخمسة عشر دقيقة»

ابتسم فريد قائلا:

«بالتأكيد أجريت بعض الاختبارات على فترات أقل وتدريجيا سوف تزيد هذه المدة حتى لا يتعرض نبيل لأي خطر، يجب ألا تكون هناك أي نسبة خطأ».

خلع نبيل ملابسه وألقى بنفسه في حمام السباحة تحت الماء، وكان فريد وسليم يتابعان الموقف ونبيل كان فاتحا فمه بطريقة عادية وهو يبتسم

وكذلك عيناه مفتوحتان ويرى بوضوح ويتنفس بطريقة عادية، ثم فجأة وبعد مرور خمس دقائق بدأ يمسك رأسه ويشير إلى فريد الذي أشار إليه بالخروج.

خرج نبيل من حمام السباحة وقال لفريد:

«لقد شعرت بألم شديد مفاجئ في مؤخرة الرأس»

رد عليه فريد وهو يدون الملاحظة:

«حسنا سأرى ما حدث، لا تقلق».

دخل نبيل مرة أخرى إلى الفيلا وخلفه فريد وسليم الذي سأله وهو يشعر ببعض الحيرة:

« ماذا حدث يا فريد هل شعر نبيل بمثل ها الألم من قبل»

رد فريد بشيء من عدم الاكتراث قائلا:

«لابد أن ثمة شيئا حدث خارج التوقعات»

عاد نبيل إلى الغرفة الزجاجية التي كان فيها ثم توجه فريد إلى سليم قائلا:

«من الصعب أن يجري فصل جزيئات الماء قبل أن تصل إلى الرئتين بنفس السرعة التي يتنفس بها الإنسان وهذا هو سبب الألم الذي شعر به نبيل، لذلك لابد من تعديل صغير في هذه الطريقة حتى لا يتكرر الألم الذي يشعر به نبيل»

قال سليم بعد أن جلسا فوق أريكة كانت تستقر أمام الغرفة الزجاجية:

« لماذا لا يتم التعديل على الرئتين بدلا من فصل جزيئات الماء قبل أن تصل إليها؟».

تحرك فريد بجذعه إلى الخلف وقال:

« لقد حاولت محاولات كثيرة ولكنها فشلت، إذا قمت بتعديل الرئة فلن يستطيع نبيل أن يعيش إلا في الماء»

قال سليم وهو يبتسم:

«حقا إذا نجح هذا العمل العبقري فلن ترَ إنسانا يموت من الغرق، لكن أخشى أن يزاحم الإنسان باقي المخلوقات المائية في عالمها في البحار والأنهار والمحيطات»

رد فريد مبتسما «لا أظن أنه مهما بلغت قدرة الإنسان المعدل على التنفس تحت الماء فلن يستطيع أن ينافس تلك المخلوقات في عالمها. إن السبب الذي دفعني إلى تلك المحاولات هي أن ينجو الإنسان من الموت غرقا فأنت تعرف الحادثة التي أودت بحياة عائلتي وغرقوا جميعا وتركوني وحيدا مع تجاربي و أبحاثي، وهذا أيضا هو دافع نبيل الذي فقد عائلته عندما غرقوا جميعا في أحد الحفلات التي أقيمت على سطح أحد المراكب العائمة. تلك المآسي هي ما دفعنا إلى أن نهب حياتنا لمحاولة التعديل هذه ليتمكن الإنسان من التنفس تحت الماء لمدة ساعتين فقط ليستطيع أن ينجو بنفسه وليس لينافس المخلوقات في عوالمهم الخاصة بهم».

بعد ثلاثة أشهر كان نبيل تحت الماء، نظر سليم في ساعته وصاح « لقد فعلتها يا فريد، لقد فعلتها، لقد وصل نبيل إلى ساعتين تحت الماء ولم يشعر بأي ألم، لقد فعلتها، حقا لقد فعلتها».

●●●

تم بحمد الله

نبذة عن الكاتب

صبري محمد أمين

مواليد محافظة الجيزة عام ١٩٧٩م، تخرجت من كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية جامعة القاهرة عام ٢٠٠٠ ثم حصلت على دبلومة الترجمة التحريرية من نفس القسم عام ٢٠٠٢. أعمل مترجم لغة انجليزية منذ تخرجي حتى الآن مع العديد من شركات الترجمة. حصلت على العديد من البرامج التدريبية والدراسات الحرة في مجالات علم النفس والتنمية البشرية والتسويق والكمبيوتر وكتابة السيناريو. اتجهت إلى النشر الإلكتروني أولا ثم وفقني الله ونشرت ورقيا - كتابي الأول (قهوة سادة) مجموعة قصصية

- كتابي الثاني (فليبق الأمل) مجموعة قصصية.

- كتابي الثالث (اتجاه إجباري) رو اية.

للتواصل مع الكاتب

الموقع الرسمي

https://sabryamin.com

الصفحة الرسمية على الفيسبوك:

/https://www.facebook.com/SabryAminAuthor

الحساب الشخصي على الفيسبوك

https://www.facebook.com/mr.sabryamin

الحساب الشخصي على تويتر

https://twitter.com/mrsabryamin

البريد الإلكتروني

mrsabryamin@gmail.com

فهرس

مغامرة مشروعة ٧
درس صغير..... ١١
البكاش..... ١٣
لأنه أبي..... ١٧
المختلف ١٩
كما سقطت الفراشة ٢٢
يوم تلات..... ٢٦
حب الحياة ٢٩
مشاعر سجينة ٣٢
اختبار صعب ٣٦
السر اليومي ٣٩
الأخ وأخوه ٤٢
الجورب والقلم ٤٤
العجوز والهاتف..... ٤٧
مذاق الكلمة ٥١
أشياء ليست لنا ٥٣
كلمتي ٥٥
كلهن أمي ٥٧
يُدبر الأمر..... ٥٩
محاضرة الحياة ٦٣
نجية ٦٥
الحاجة سناء ٦٧
السائق ٧٠
بداية جديدة..... ٧٣
تُشبهني..... ٧٥
كله يفرح..... ٧٩
أحب القهوة..... ٨٢
محاضرة لا تُنسى ٨٤
أميرة حياتي..... ٨٧
نبيل بعد التعديل..... ٩٣

عن الدار ومشروع النشر الحر

دار لوتس للنشر الحر هي أول دار نشر حرة يملكها كل كاتب، تعتمد مبدأ النشر الحر من خلال مشروع طموح يهدف إلى تخطي عقبات النشر ومساعدة الكاتب للنشر بطريقة تمنحه الحرية الكاملة وكل الحقوق والصلاحيات للتعامل مع كتابه دون استغلاله مادياً أو معنوياً، ودون احتكار لمجهوده الفكري في عملية تجارية.

هي مشروع خدمي وليس تجاري، تدعم الكاتب الموهوب وتسانده، تحاول الارتقاء بمستوى الأدب وتهدف إلى احترام الكاتب والقارئ من خلال نشر كل ما هو جيد دون الإساءة لشخص، أو أشخاص، أو مؤسسات، أو أفكار، أو عقائد، أو ديانات، أو أنظمة سياسية.

دار لوتس للنشر الحر

مصرية مغربية، تأسست في مايو 2017

www.lotusfreepub.com

إصدارات المشروع

قلم عطر
وعادت ريما
مثل ليلة حب
وكأني أحبك
عالم قراطيس قراطيس
أوتار
دماء على ثوب أبيض
أموات فوق الأرض
بقلم رصاص
حريق على الجسر
القدرات السحرية
العالم لن ينتظرك
عندما ينتحب الياسمين
مرايا
البوهيمي
أيها الشباب لا تفقدوا الأمل
خريف مريم
حلم صريع
مُتيم
يوميات رجل محسود
هدوء ما قبل الانفجار
الموؤودة
أنين المساجد
صوت السماء
طبق كشري
أحببتك بعين قلبي
ما لا تعرفه عن الهجرة
الأيام الأخيرة
موانئ الرغبة
١٠٣
زمن الحنين
أوراق على دفتر الحنين
أحببتُ شبحاً
حكايات من التاريخ
كلمات ربي (ج١)
وشم على كتف الحياة
كيتو ياكيفو
يتيمة بأبوين
مائة عام على كوكب الأرض
نبوءة عاشق
رصيف نمرة ٢
قمر الدم
حنين الحنين
نساء وقيود
الآهات المكبوتة
عن الذي استدان ليشتري الشقاء
كتبتُ أحبك

فلاكا
الآدم وهي
أحلام فجر
مفاهيم إدارية لثالث ألفية
عاشق الضي
أنامل قصصية
مملكة روح
ماهر وسماهر وبئر النسيان
الضال
خليج بلا وافدين
في ليلة شتا
الشيطانة وعصا الجحيم
أنين وردة
لا تتعجلي الرحيل
بدون
من الأكاديمية إلى الفيلا
برديةُ رع (ذهاب وعودة)
كاتب ونساء وعبث
جيهينا
مذكرات خادمة من مونار
بعيداً عن العالم
قمر الدم (العودة)
سئمت الغربة
هكذا ضعنا
حلم
شيء من قلبي
قطوف وحروف
عائدة من الموت
شياطين السموم
حوار في الأفكار
واد الزهور
أغاني البادية
الفراشة البيضاء
مدينة حرف
عذرية ما قبل الواحدة صباحا
حواديت مدينة الرحاب
الضحية
غيمات حبر وحب
كهف الجحيم
الحبيب المستحيل
تنمية التفكير الابتكاري للطفل
المنهج الإصلاحي
نفيش
ورد وشظايا
ولوج
الفن مين يعرفه
كريتوس

عهد
نبض حرف لا يخون
عبد اللاه
ساكني الكهوف
أخبرت البحر عنك
أحرفي تتراقص
لا تحزني
حلم عاشق
إحساس درويش
أقلام حائرة
خشوع بمحراب الحب
قمر الدم (رحيل الآلهة)
أرض الفيروز
عبرات ضاحكة
أنا يحيى
نظم المعلومات المحاسبية
حكاياتي المحروسة
حروف من قلبي
على الأعراف
زواج افتراضي
رجماً بالغيب
ألمانتا
خواطر مع الريح
شمعة وقلم أحمر
أسلوب العدول في القرآن الكريم
الفستان الأزرق
سيجار ولص ومأذنة
الحب المفقود
القيامة الوردية
كلمات متقاطعة بالشمع الأحمر
لماذا رحلت؟
جدال
التقارير المالية
موسم التوت
عبث
سلسلة المحاسب المتميز - ج١
هل ستغفر لي
سفاح المدينة
ناروبري
حبيبة أمها
التيسير في علم التأسيس
همسات ونسمات
الملاك الأسود
ملكوت السلطانة
أنات عاشق
ساعة من الزمن
زمان غادرنا

رقة النسائم
سبعة أحلام
في انتظار المد
نداء القلوب
درب الحكايات
ضجيج البحر
من تربة الورد خلقت
شهوات العقل
قطرات منثورة
أكروفوبيا
خِدر مسلوب
دروب ملتوية
سوط الذكريات
الأخيذة
المأدبة
سيناء أرض العبور
الذكاءات المتعددة
دكتاتورية الحب
الفراشات لا تسكن القبور
تذكرة سفر
وخشعت قلوبهم
وطن الجوماتجي
نموذج بايبي البنائي
المدينة الهادئة
السفينة
رشفة عشق
المسكالين
حرف تايه
حروف نابضة
الراقدون فوق التراب
أيقونة حروف عربية
ولاد الشيخ فضفضة
كالبحر يتنفس موجا
بائعة اللبن
مركب شراع
غشاء حضارة
عظماء في الظل
الوصايا
معك دائما
نون وياء
اليمني
عندما يفوح الياسمين
عنوان مجهول
ترانيم
من بعد غياب
الرحيل إلى الداخل
ليالي باريس الحزينة
هكذا تكلم أبي
النحو الميسر
قيد الماس
أرض دي بلو

طرقتُ باب هواكِ
لحظة داخل إنسان
الذين أخفوا الشمس
أقلام نابضة
حكايا منتصف الليل
برواز على جدار القلب
كبير العيلة
وصمة عار
خربشات كاتب مجنون
اغتصاب أعشاب البحر
في ظل الحبر - ج١
أصعب فراق
للحب أكتب (أحمد وأحلام)
للحب أكتب (نادر ونورهان)
للحب أكتب (فارس ونادين)
اعرف دينك (ج١)
علماء صاروا شهداء
ضفاف
تأشيرة حياة
مجانين لا يدخلون الجنة
وجوه عابرة
امرأة خرافية
فيلم كرتون
أحوال منطقة أزواغ
محاولات
أربعون عام من الفقر
حطام زاحف
فوق السحاب
كلمات الحياة
إعصار الدم
العشق المنتظر
احترف فن كتابة الرواية
بذور الدم
حديث إلى النفس
موشور اللا متناهية
قصائد على خد الورد
عازف على ضفاف الشوق
وإني أشتهي وصلا
وانفرطت حبات السحر
هذا ما حدث بالفعل
انتبه إلى يمينك لعله يسار
ماذا علمتني الأيام
قهوة سادة
ثم أشرقت الشمس
دين السياسة
عيونك دربي
في جحر الأرانب
النارية
في الحافلة
نساء على ضفاف الحلم
تغريدة الروح والدم
ديوان الحب والحكمة

خفقات قلب
زهرة الصحراء
في ظل الحبر - ج٢
على ضفاف الذاكرة
محسن المصدوق
إسراء - أصفار العهد القديم
وعلينا السلام
انتقام الشر
الأحلام الوردية
أنت الحياة ودونك الموت
رسايل بحيص
ميراث الماضي
بداية حياة
سلة التفاح
فضة
قانون الحب
على الهامش
بين الجدران
سرطانية
العملاء
حنايا الروح
غربة حرف
غدا يوم جديد
أروقة الحنين
إحساس محمود
أنين سديم
الأتينيو
طلسم عشق
على شرف المحبرة
رباعيات
معزوفة حرف
في ظل الحبر - ج٣
أفول الأوهام
حديث الروح والقلب
أرض الأحلام
ملوك وتيجان
داون ٢١
فين عصايتك
من برلين إلى مارلين
حبيبتي أميرة البحار
رسائل أحرقتها العواصف
أفكار للتأمل
الجني العجوز
أحببت قمرا
أرض الأجداد
قلوب من الجنوب
بداخلي غصن زيتون
كلام ابن عم حديت
عذراً أيتها الخنساء
فليبق الأمل
لا سكاكين وجع في هذه المدينة
سر الملكوت

قرة عيني
عيناكِ
ياء .. سين
بداية جديدة لكل أم
وقتي من ذهب
القائد الصغير
سمير وهدفه النبيل
لأنكِ مني
قابلتك في المترو
قبة الحياة
ماريوه
لقاء غريب
وحينما افترقنا
دوائر
آخر قطرات الحنين
اليوم الأجمل لم يأت بعد
عندما ينطق الحرف
الغروب الأخير
رانت الأيام
أبعد من الكلمات
اتجاه إجباري
قصة عشق - ج١
سجود المشاعر
رسائل لم تصل
بين أجنحة الكاردينال
أسيرة روح
صغيرتي
حكايات رحال
جوري
غربة روح
توءم الشعلة
عادي في بيتها
رسائل منسية
خلف القلوب الصامتة
وقابلتُ شيطانا
تزوجيني أولا
لم أكن أتوهم
ملاك أنت أم بشر؟
العملية كوبرا
ذلك الغريب
عاشقة على سفح القمر
احترس هناك بشر
قسمة ونصيب
مع العصفور
برادلي ولغز أهل النجوم
أزرق داكن
غموض عنوان
مخطوطة إبليس
حبر الألم
متاهات الحجرة المغلقة
طريقي بقربك
موعدنا ذات صباح

بلدة على أطراف العالم
بين طيات الهوى
أسرار الالتفات في سورة النحل
سكين ودماء
رجة عقل
تاج
كأولين
صديقي عرّوب
حكايات شارع العمدة
محاولات في القافية
دور المجمع العلمي العراقي
عاليا يا عرب
حروف مبعثرة
القرآن خارج الصندوق
نعم أحبه.. ولكن
فرس على جبل
لامار
عندما يُعشق الزيتون
آخر الحلم
حواء تحت الهامش
سيكولوجية النهاية
عنكبوت اللهفة
حديث لا يقبل الرحيل
ذات الرداء السماوي
العنقاء
ضمير الشيطان
الحياة في ريفانا
امتنان
سقوط بطئ
السر الآسن
شيفرة القدر
لسان التمساح
ليليان
بطل بلا عنوان
مشكاتي تنزف عشقا
نحو مقاربة جديدة لإعادة التربية
ظلال على جدار الروح
إعدام القيود
أنتِ قدري
هذه هي أنا
التدفق في عروق الذاكرة
من بين عيونك باتولد
صدفة
خواطر قلبية
مبرر نهائي
موسم الأحلام
حقيقة وما بعدها
صوت وصمت
خواطر الثامنة مساء
أحلام مبتورة
دموع الشتاء
حينما فاض قلبي

حكواتي هذا الزمان
مميز بالأسود
صحفية على هامش الحب
قطوف أندلسية
دراويش وكرامات
قبل النهاية
كبير العيلة ٢
دينامية المشروع الشخصي
كبير العيلة ٢
كما سقطت الفراشة
كانت لنا أيام
مكالمة خاطئة
أغنيات الرحيل
حكايات الشهيد
وجع الذاكرة
الحلبية
كبير العيلة ٣
وتناثرت الأجزاء
العالم متر في متر
يوميات رمضان
شهقة نبض
اعتذار غير مُجدي
ظلال المرئي
طفولة بلا زوابع
أسطورة قلبي
دلني على السوق
كلمة أم حكاية
بقايا ذاكرة
رحلتي إلى السودان
تدريس اللغة العربية
رحلتي إلى السودان
أطلال أحلام
لم يعد قلبي لغيرك
معطفي قال لي
جريمة أبريل
الجذور
عالم الشياطين
آمال

www.lotusfreepub.com

رقم الإيداع
2020/11339

الترقيم الدولي ISBN
978-977-85720-5-6

الترخيص
مرخص بموجب رخصة المشاع الإبداعي - نَسب المُصنَّف
٤,٠ - دولي

cc BY

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف